الفصل الثانى عشر

« الإسكندرية . نيقوسيا . الرحيل إلى قبرص . »
« موت رئيس الاسبتارية »
« انتخاب خليفته »

. . .

مكثت فى القاهرة ثلاثين يوما ثم غادرتها بعد أن استأذنت السلطان « ونيكولودى كونتى » الذى سألنى أن أوصل إلى البندقية بضع رسائل حملنى إياها ، كما استأذنت مضيفى كبير المترجمين وزوجته وأطفاله الذين عاملونى كما لو كنت واحدا منهم ، ووصلونى بكثير من الهدايا التى أخذتها معى لاسيما قطتين هنديتين وببغاوين وبعض العطور وأشياء أخرى ، من بينها فيروزج لا أزال محتفظا به ، كما زودونى أيضاً بأنواع من الزاد للاستعانة بها فى رحلتى.

غادرت القاهرة وركبت النيل، حتى إذا بلغت المكان الذى يتفرع عنده إلى فرعين تركت الفرع الأيمن الذى يؤدى إلى دمياط التى كنت بها من قبل ، ونزلت فى الفرع الآخر، حتى أدركت مكاناً قريباً من الإسكندرية اسمه «رشيد»، ومنه وصلت إلى الإسكندرية ، وهى مدينة رائعة جداً فبقيت فيها ثلاثة أيام تأملى من المكانين المقدسين اللذين ولدت وبأحدهما سانت كاترين واستشهدت فى الآخر الذى رأيت فيه سردابا سدّ القوم بابه ، ويقال إن به العجلة التى شدّوها إليهـــا .

والمدينة ميناء بحرى عظيم ، ومكان كبير لاستقبال النصارى القادمين والراحلين على السواء ، ولما شاهدتها مليا سافرت برا إلى دمياط ، لكنى لم

قف على أثر للسفينة التى أعطانيها ملك قبرص ، مما اضطرنى للبقاء ثمانية أيام فى انتظار وصولها لأنها كانت قد أبحرت مصاقبة للشاطىء حتى بلغت بيت المقدس .

أوإذ أنفذت إلى والى دمياط ماحملته إليه من رسائل السلطان وكبير المترجمين فقد تلقانى بالاحترام العظيم ، كما بعثت أسأله عما اذا كان لديه جلد تمساح لأرسله إلى ملك قبرص استجابةً لسؤاله ، فقدم إلىّ جلد تمساح اصطاده حديثاً ، غير أن رائحته كانت شديدة الكراهية ، ولم يكن أحبّ الى نفسى من أن آخذ معى ابنة الوالى اللطيفة بدلا من حمل جلد هذا التمساح ، وعلى أية حال فقد ركبت السفينة التى اتخذت باسم الله فى البحر مجراها حتى وصلت بعد سبعة أيام مدينة « ألباف » فأرسيت بها ، وكانت مكاناً أبعد مايكون عن الصحة ، ووافق يوم وصولى بالذات موت أحد الأساقفة واثنين من رجاله ، وحمدت الرب على أننى لم أكد أضع قدمى على الأرض حتى كان فى استطاعتى الرحيل على مطايا الأسقف ومعاونيه ، ومضيت قدما إلى بلاط ملك قبرص فى نيقوسيا ، وقد سبقنى المترجم الذى أمدنى به الملك ليعلن مقدمى الى الملك وكبير أساقفته ، فبعثا إلىّ يطلبان منى البقاء تلك الليلة فى أحد الفنادق ، حتى إذا انبلج صباح اليوم التالى لقيانى لقاء يتمثل فيه التشريف ، وكان الأمر كما قالا .

وصادفت فى الصباح — وأنا فى طريقى إلى القصر — كثيرين من كبار رجال البلاط الملكى الذين خفُّوا لاستقبالى وصحبونى إلى حضرة الملك[٧٧] ، فلما وصلت إلى هناك ألفيته هو والكردينال ومعهم طائفة كبيرة من الأعيان ، فتلقونى أحسن لقاء وأحاطونى بالرعاية والمودة حتى لكأننى قد ولدت بينهم ، وحمدوا الله على سلامة عودتى بعد هذه

الرحلة الطويلة المدى ، وشكرونى نيابة عن الملك لما قمت به من الخدمة له ، وقدّموا لى كل ما طلبت ، ثم استأذنت الملك ، فاستصحبنى القائد الذى كان حاضراً المجلس وأخذنى إلى محل إقامته كما حدث فى المرة السابقة ، حيث أكرمت وفادتى إكراماً عظيما .

وفى صباح اليوم التالى حدثت ضجة كبيرة بين الناس ، وهرع كل واحد إلى حمل السلاح حتى الكاردينال نفسه وأخته السيدة إينيس وكثيرون من كبار رجالات المملكة : ثورة على الملك ، هادفين من وراء ذلك قتل أحد أصفيائه ، فإن لم يستطيعوه فأسره ، وكان اسمه « يعقوب جيرى » الذى كان يتولى منصب القضاء ، وإذ ذاك هرب الملك إلى حصن من الحصون الواقعة فى أحد أطراف المدينة يسمّونه « بالقلعة » ، بيد أن الثائرين حاصروها مطالبين الملك بعزل صفيّيه من البلاط ومنعه مدى عام من العودة ، فأقسم الملك على ذلك وبرّ بما وعد ، فانفض الناس إلى بيوتهم .

فلما كان اليوم التالى بعث الملك فى طلبى وسألنى ـ فى حضرة الكردينال وجماعة من النبلاء ـ أن أتسلم منه كل مايرضينى ثمنا لرحلتى ، فأجبته بأننى لقيت من رعايته الكثير الذى يكفينى ، وأن عندى من المال مايسد نفقات عودتى ، والتمست منه أن يأمر القوم بمنحى ضمان مرور وتجهيزى بسفينة لحملى إلى رودس ، وأخذت أتهيأ للرحيل ، وأخذ هو من جانبه يعمل على تعويقى ، إذ رغب فى أن أبقى مدة ثمانية أيام على الأقل ، فلم أجد حيلة إلا الرضاء بما أراد ، بعد أن أدركت أن فى استجابة هذه الرغبة ما يسرّه ويرضيه ، وفى أثناء هذه الأيام الثمانية أخذت أعظم قسط من الراحة ، وجهز القوم مركبا لحملى ، ثم أذن لى الملك فى المغادرة (وإن كان ذلك الإذن فى

فى الحقيقة على كره منه) وزودنى بشماره الذى لازلت محتفظا به ، وأمدّنى بعشر قطع من قماش وبر الجمال والتيل الجميل ، وأعطانى فهداً ومقادير ضخمة من الزاد تكفى مدة عام أستعين بها فى رحلتى إلى رودس .

وفى أثناء وجودى هناك وفد على الملك سفيران : أحدهما من ناحية دوق ساڤوى ، والآخر من قِبل أحد أدواق ألمانيا ؛ وكلاهما يعرض على الملك أن يزوجه ابنته إن رغب الملك فى ذلك ، ولم أسمع خاتمة هذين العرضين ، بيد أنه يقال إن زواجا آخر قد تم وقد تلهف على إتمامه كبير فرسان رودس نيابة عن إحدى بنات كونت أرجيل فى أراجونه ، وهى أخت زوجة الأمير دوق «بدرو» الوصى على عرش البرتغال ، وبدى لى أن المشروع الذى كان أدنى إلى نفوس أعضاء مجلس الملك هو الزواج بابنة دوق ساڤوى ، وأعتقد أن هذا هو المشروع الذى تهيأ له النجاح [٧٨] .

. . .

وملك قبرص ما زال شابا فى السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، ضخم البنيان ، غليظ الساقين غلظا حتى ليكاد سمنهما عند العقبين يبلغ محيطهما عند الفخذين ، ولكنه رقيق الحاشية ، على جانب كبير من الإدراك والفهم لايتكافأ مع صغر سنه ، كما أنه شديد المرح ، قوى البنية والتركيب الجثمانى ، وهو أبرع ما يكون فى ركوب الخيل ، ولو لم يكن بلده غير صحى لأسعدنى أن أعرض عليه نفسى للقيام بخدمته فترة من الزمن ، بيد أنه يكاد يكون من المستحيل على الغريب أن يعيش فى مثل هذا القطر المنكود ، فكانت هذه العوامل وغيرها تحتّم علىّ العودة إلى قشتالة للمساهمة فى حربها ضد المسلمين ، ومن ثم اضطررت لمتابعة رحلتى بأسرع ماوسعنى الجهد .

غادرت مدينة نيقوسيا وبلغت « سيرينا » حيث كان فى انتظارى مركب أعد لنقلى إلى رودس .

وسرينا مدينة قديمة أسسها أخيل وسميت باسمه ، وهى ـ رغم صغرها ـ منيعة الجانب محصنة الأسوار ، ولها مرفأ طيب وإن لم يكن بالكبير ، وأمامه سلسلة تغلقه وتمنع الدخول إليه ، وتقوم على هذا المأصر حراسة قوية ، وكان الملك قد هرب هو والكردينال وعمه والسيدة إنيس وكثيرون سواهم إلى هذا المكان حيث وقع الملك جانوس فى الأسر ، (٧٩) وهو أصح أصقاع جزيرة قبرص حين تهب عليها الرياح الغربية ، وقد وجدتُ فيه سفينة تجارية هى التى أمر الملك بإعدادها لنقلى إلى رودس ، وأخرى معها محملة بالمتاجر ، فغادرنا المرفأ ؛ حتى إذا كانت الظهيرة بلغنا طرف «رأس بيفانى» ، وإذ ذاك خرجنا إلى البحر عن طريق خليج « ساتاليا » المؤدّى إلى تركيا ، غير أنه قبيل الساعة الثانية أبصرنا غراباً تركياً قادما تجاهنا وفى نيّته الاستيلاء علينا وتحطيمنا ثأراً لإحدى سفنهم التى كان الكتلان قد أخذوها خارج ميناء قبرص ، فنشرنا الشرع وأعملنا بكل قوانا بالمجاديف ، وفعل الأتراك فعلنا ، ولم نتراخ فى خلال ذلك عن الدعاء والصلاة ، ولكن أيدينا كلت من التجديف ، وكان معى بحار من إحدى المراكب الكتلانية قتل ابن أخى الربّان ، وقد حكم عليه بالشنق بصارية المركب ، إلا أن الحبل انقطع لثقل وزنه ، فالتمست من الربان أن يهبنى إياه سيما وأن الرب قد فعل الكثير له ، فقبل الربّان طلبى ، وكان هذا وسيلة نجاتنا ، إذ كان هذا الكتلانى بحاراً ماهراً فأسرع بالقارب مخففا إياه مما عليه حتى استطاع الإقلاع قدما أحسن من الأول ، إلا أن المركب الآخر المحمل بالبضائع لم تطرح شحنتها فأبطأت

وراءنا ، حتى إذا كان وقت الغروب وقعت فى قبضة الأتراك وأغرقوها هى وجميع بحارتها .

وفى أثناء الاضطراب الذى أعقب هـــذا الحادث توفر لدينا الوقت لنزيد قليلا من المسافة التى تفصلنا عن العدو ، فلما شرع الظلام يمد طنبه على الأفق أشرعنا أكثر ما يستطاع إشراعه من الشرع ، وأخذنا أماكننا إلى جانب المجاديف ، وعملنا ماوسعنا الجهد ثم طوينا القلاع حين أرخى الليل سدوله ، واستدرنا يمينا فى هدوء حتى لايسمع صوت المجاديف ، وإذ ذاك مر الغراب التركى دون أن يرانا رغم أنه كان على مقربة كبيرة منا ، وقال البحار إنه ينبغى علينا أن نغير وجهة سيرنا لأن الغراب لابد وأن يرسو فى انتظارنا ، واعتقدنا صحة قوله لأن مركبنا كان صغيراً جداً ،وأننا فى أيديهم ، ومن ثم انطلقنا إلى عرض البحر ورأينا الغراب يدنو من الساحل ، وإذ انتصف الليل هبت الريح الجنوبية ، وأخذت الأمواج تدفعنا إلى الأمام تارة وإلى الوراء أخرى ؛ ولكم كنت أوثر أن أقع فى أيدى الأتراك من أن أغوص فى أعماق البحر ، وأرادوا منى أن أقذف بواحد من رجالى من على ظهر المركب بيْد أننا دافعنا عن أنفسنا دفاعا قويا ، وإذ اندفعنا أمام العاصفة فقد اندفعنا إلى « قشطيل الروج » ووصلنا إلى هناك فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ووجدنا أن الغراب التركى قد غادره قبلنا بساعتين ، فأرسينا هناك بمرفأ صالح ، وتسلقنا القلعة ، وأخذنا فى الاستجمام بعد أن كتبت لنا النجاة من خطر كبير .

وقلعة قشطيل الروج هذه فى أيدى فرسان رودس ، وهى جزء من ولاية أرمينيا رغم أنها جزيرة صخرية شديدة الوعورة ولا يستطيع أى حيوان تسلقها ، أما عند السفح ـــ عند المدخل إلى الميناء ـــ فتوجد بعض مناجم الملح التى تغل دخلا كبيراً لفرسان رودس .

غادرنا جزيرة قشطيل الروج وأخذنا سمتنا إلى رودس ونحن مازلنا فى

خوف مقيم من هذا الغراب التركى ، كما صادفنا جوا قلبا ، بيد أننا بلغناها فى مدى يومين ودخلنا الميناء ، وذهبت أنا للإقامة مع الأخ « نينودى كابريرا » وهو فارس عظيم قشتالى المولد ، كما أنه أحد فرسان القديس يوحنا وإن يكن أكثرهم جميعاً ثراء وأعظمهم شهرة ، فتلقانى بسرور زائد ومودة كبرى ، وعاملنى أندى معاملة ، وأحسب أنه لولا الرقعة التى أمدنى بها لمت بعد ما تكبدته من المشاق ، بل إننى ما كنت لأجد فى بيتى الخاص أكثر تقوى أو أحسن خدمة مما وجدت عنده .

وفى غداة وصولى ذهبت لرؤية السيد الأكبر أنطونيو[81] فلوفيان كبير فرسان الاسبتارية لأناوله الرسائل التى حملنى إياها ملك قبرص إليه عن شئونه ، وصحبنى الأخ « نينودى كابريرا » وغيره من الفرسان القشتاليين والفرسان التابعين لأمم أخرى ، لاسيما الفرنسيون الذين هم كثيرو التعلق بشعبنا ، فلما وصلت إلى هناك وجدت السيد الأعظم وقد اشتدت به العلة شدة تدنيه من الخطر ، وكان يشكو من آلام فى الكبد ، ولكنه سرعان ما أنفذ ردوده إلى ملك قبرص ، فاستأذنته وعدت إلى حيث أقيم ، وقد مات السيد فى تلك الليلة من علته ، وبينما كان يعالج سكرات الموت جاءه ــ كما هى العادة ــ القادة والمعترفون وفئة معينة من فرسان المجلس وسألوه بحق قسمه وبضميره أن يسمى لهم الشخص الذى يريد استخلافه من بعده رئيساً أعظم للفرسان ، وأن يكتب اسمه ويختمه بخاتمه حتى يبقى سرا ؛ ثم أخذوا خطه ووضعوه فى مكان أمين حتى لا يعرف أحد مضمونه سوى المعترف ، وجرت عادتهم أنه إذا مات السيد عمدوا إلى فض الورقة المختومة ، فإذا جاء وقت انتخاب خليفته عدّ صوت السيد المتوفى ــ كما يقال ــ بصوتين .

دفن هذا السيد يوم وفاته فى ساعة القداس ، وكانت المراسيم الجنائزية تتفق وشخصه ، وحمل نعشه كبار الفرسان على أكتافهم وهو مجلل ببساط الرحمة الأسود ، وسار أمامه وخلفه ركب طويل ، أما الذين لم يتسن لهم الوصول إلى النعش فقد ضمّوا أيديهم إلى بعضها ، وكان السيد الأعظم مرتديا ملابسه كعادته متقلداً سيفه ، ومهمازاه على قدميه ومسبحته فى يده ، ودفنوه على هذه الهيئة ، ثم أمروا بعدئذ بغلق جميع الأبواب وأجلسونى فى حجرة أو صدوها من الخارج ، وأعطونى طعاماً للأكل ، أما رجالى الذين معى فقد أرسلوهم إلى المدينة مدثرين كألوف عادتهم وقد تمنطقوا بسيوفهم جرياً على سُنّتهم ، ودخلو الكنيسة لانتخاب الرئيس الجديد الذى يتم — كما يقولون — على هذه الطريقة .

وأخذوا من كل أمة من الأمم التى يتألف منها الفرسان ثلاثة أشخاص هم فارس وقسيس ورجل علمانى أو أخ خادم ، ويوكل أمر اختيار هؤلاء الثلاثة إلى جميع الحاضرين الذين يبدأ كل منهم فى الاعتراف وتناول القربان ثم القسم على الآثار المقدسة التى عندهم بأنه سوف يقيم اختياره على أساس من الطيبة والصدق ، كما يقسم المختارون أيضاً بأنهم سينهجون نهجاً رائده الخير والحق فى من يقع عليه اختيارهم ، ثم ينتخبون ثلاثة عشر فرداً من الذين يقومون بدورهم — باختيار سبعة يقسم كل منهم باتباع الحق ، ثم يسجل اسمه — دون أن يكلم زملاءه — فى ورقة مطوية ويضعها على مائدة أمام هذا المعترف الذى — كما قلت — يمسك بصوت السيد الراحل . ويتم هذا فى حضور جميع الفرسان ، وحينذاك يقوم المعترف فيتلو الأسماء التى آثرها السبعة

واسم من رشحه السيد الأعظم ، ويعتبر صوت السيد ـ كما قلت ـ بصوتين ، فمن نال الأغلبية أصبح الفارس الأعظم .

بقى الجمع ملتئما طوال ذلك اليوم وكذلك الليلة التالية حتى الفجر ، وقد اعتقدوا جميعاً ـــ بل وقالوا ـــ إن قائداً أعظم كان حاضراً هناك لابد وأن يصبح السيد ، وأنه لم يكن ثمت داع لإجراء إنتخابات ، وبهذا كان من المؤكد اختياره ، وحدث قبل أن يطلع الفجر بساعة أن سمعت ضجة كبرى دوت بها الكنيسة والمدينة معاً وصحبها دق الأجراس ونفخ الأبواق ، فجاءوا إلىّ فى حجرتى التى أغلقوها علىّ وحملونى إلى الكنيسة ، وقد انتظم الكل فى الموكب فجعلونى أحمل « ريشة » الجماعة إلى المذبح الكبير ، وصاح الشخص الذى يحمل أسماء المنتخبين : « أدوا الشكر لله ، فإن سيدكم هو من أهل أوڤرن[٨١] » ، وعلى الرغم من أن الظلام كان لايزال سائداً إلا أنه أمكن رؤية كثيرين وقد اصفرت وجوههم حسد وغيرة .

فلما تم ذلك غادرنا الجميع الكنيسة ، وكان النهار قد تبلّج نوره ، فذهبنا بعدئذ إلى مقر الجمعية وفتحوا الأبواب ، وانطلقنا إلى المدينة مع جميع الناس ووضعنا الريشة على برج البناء ، وكان السيد الجديد فارساً قديماً قد أخلص فى خدمة نظامه وعلى جانب كبير من الفضيلة ، فلما كان اليوم التالى تشاوروا فيما بينهم وأمَروا أن يبحثوا عنه ، وسلحوا أربعة مراكب رحلَت ميمة فى الحال شطر « أوڤرن » حيث كان موجوداً ذلك السيد الذى اختير كبيراً لفرسان الاسبتارية .

والواقع أن وقوع أى خطأ أو عيب فى هذا الانتخاب يكون مدعاة

للدهشة ، ذلك لأنهم يقيمونه على أساس بعيد كل البعد عن التحيز أو الصداقة أو الكراهية ، هذا إلى أن الجمعية موقرة جداً وجليلة القدر ، وهناك كثيرون من أعاظم الرجال الذين يكونون على الدوام مستعدين للدفاع عنها وحمايتها وذلك أمر لامناص منه لمجاورة القوم للترك من ناحية ولسلطان مصر من ناحية أخرى ، ومن ثم كانت سلامة النظام وأمن الطائفة تتوقف على شجاعة المدافعين عنه .

الفصل الثالث عشر

« السفر إلى القسطنطينية . غرق السفينة . القتال بين الكتلان »
« والجنوية ، وصول سفارتين من بزنطة »
« بعض الجزر والمدن »

. . .

كانت هناك سفينة راسية فى ميناء « إيثونا » برودس تعاقدت مع ربانها على نقلى إلى القسطنطينية ، ومن ثم أبحرنا ووصلنا إلى جزير «ساموس» الواقعة فى بحر الأرخبيل، تاركين على يميننا قلعة « سنت بدرو » الموجودة فى الأرض التركية الأصلية ، وعلى يسارنا جزيرة « كوس » التابعة لفرسان «القديس يوحنا» برودس، ثم ركبنا سفينة تابعتنا بها سفرتنا إلى جزيرة خيوس، فلما بلغناها أخبرونا بأن السفن والأغربة التى جاءت من « المجمع » لحمل إمبراطور اليونان إلى أوروبة قد ألقت مراسيها فى ميناء خيوس ، ففردنا شرعنا وأبحرنا والجزيرة على يسارنا ، غير أن الريح لم تجر بما نشتهى مما أرغمنا على إلقاء مراسينا بجانب الجزيرة ولبثنا هناك تلك الليلة، حتى إذا كان الصباح أبصرنا غرابين كبيرين يقتربان منا وبصحبتهما قاربان خفيفان ، فلما حاذونا أمرونا بالعودة إلى خيوس وإلا قاتلونا ، وما كان لنا إلا أن نستجيب لهم ولم نعص لهم أمرا أو نقاومهم، وقد فعلوا هذا حتى لا نقف على سر مايفعلون، ذلك لأن الجنويين قد أخذوا هذه الأغربة وسلحوها قاصدين الذهاب إلى الإسكندرية لأخذ غرابين كتلانيين بها هما « كازاساجس » و«سوفينت» ، ومن ثم يكن لنا من حيلة إلا العودة بالسفن والرسو بالميناء ، وبقينا به طول اليوم ، فلما انتصف

الليل هبت عاصفة هوجاء ، وبينما كنا نكافح بلا أمل انفلت مركبنا من الحبل وعلق بسفينة كبرى كانت النار قد التهمتها من قبل وغرقت منذ وقت بعيد خلال الحرب التى كانت مشبوبة الأوار بين البنادقة والجنوية ، وبقيت بعض أجزائها ظاهرة للعيان فوق سطح الماء ، فاصطدمت بها سفينتنا وتحطمت وسقطنا فى اليم ، وكان الوقت إذا ذاك نهاراً ، على أن البحارة الذين استبد بهم الفزع من شدة هيجان البحر استطاعوا الوصول إلى الشاطىء بعد لأى مشقة ، أما أنا فقد بقيت — أثناء غرق السفينة — فى الماء متشبثا برمث طاف على سطحه ، وإذا ذاك أصدر بعض السادة الذين كانوا هناك (وهم نيكولادى مينون والربان وبعض الأساقفة والسادة الفرنسيون) أمرهم بإنقاذى ، لكن لم يجرؤ أحد على الأقدام على هذا المخاطرة ، غير أن بعض البشكنس تناولوا قاربا صغيراً من أحد الأغربة وقدموا نحوى ثم عادو إلى اليابسة ، وكانت الروح قد بلغت التراقى من الماء والبرد إذ كان الوقت عيد الميلاد ، وقد وجدت أسقف « فيزوا » بالبرتغال[٨٢] فأخذنى معه وقام بتجدتى ، وهنا سمع السادة الفرنسيون منى نبأ موت كبير فرسان رودس ، ثم جاءت ثلة من فرسان النظام ومعهم قائد الأخ الأعظم « بولاك » ، ولما هدأت العاصفة وسكن البحر أخذوا هذا القائد إلى رودس فى أحد الأغربة وأصبح مارشالها ، وكان هو نفس الشخص الذى جاء برسالة[٨٣] البابا إلى قشتالة ثم فقد فيما بعد إحدى عينيه ، ولم يكن فقده إياها حين قابلته ، وكان فارساً رائعاً جداً ورجلاً خفاق الشهرة .

بقينا فى خيوس حتى نهضت الأغربة لقتال الكتلان حيث أبحرت إلى ميناء الإسكندرية فلما بلغته وجدتهم هناك ، وقد التحم الجمعان ، وتمكن الكتلان من إغراق إحدى السفن ، وأما الغراب الآخر — وهو أكبر من الغريق

وأشدّ قوة منه ـ فقد كان للأسرى، وظل الفريقان يحارب أحدهما الآخر طول النهار والليل، والمسلمون يشاهدون القتال، فلما كان الفجر هبت من ناحية البر ريح طيبة فركب الكتلانيون البحر وانطلقوا، ولم يجرؤ الجنوية على متابعتهم لما أدركوه مقدماً من المضرّة اللاحقة بهم إن اشتبكوا وإياهم فى قتال على أديم الماء، وحينذاك مضى الكتلانيون إلى رودس وعاد الجنويون إلى خيوس حيث كنا لا نزال موجودين، ولما سحبنا سفينتنا إلى الشاطئ أعدنا ترميمها وإن فقدنا ما أوسقناها به من البضائع، كما ضاعت منى أشياء كثيرة جلبتها معى من الشرق، وأخذ السفراء سمتهم وغادروا الميناء ومضوا إلى «المجمع» الذى كان منعقداً إذ ذاك وأرسوا فى «نيس» بمقاطعة بروفانس، وكانت هذه السفارة إحدى ثنتين جاءنا لنقل إمبراطور اليونان للحصول على تفاقه مع «المجلس الكنسى»، وكانت سفارة بالغة الزينة والروعة مؤلفة من رجال أحسن القوم اختيارهم، غير أن خبر مقدمها ما كاد يترامى إلى سمع البنادقة ويروا التحامل الكبير الذى أثير ضد البابا أيوجين ـ الذى هو فى الأصل من أبناء تلك المدينة ـ حتى بعثوا بسفارة ثانية إلى الإمبراطور، والتقت السفارتان فى القسطنطينية وأشرعنا السلاح تأهباً لقتال كل منهما الآخر، وحينذاك أعلن الإمبراطور أنه لن يمضى مع أى واحدة منهما اعتزاماً منه الرحيل على ظهر سفنه الخاصة، وسألها مغادرة بلده وعدم اعتراض سبيله وإلا أضرب عن الرحلة وكفّ عن السفر، فاستجابا له، ومضى مندوبو سفارة المجمع الكنسى إلى خيوس، بينما اتجه البنادقة اتجاهاً خيل للناس معه أنهم يريدون المضىّ إلى البحر الأسود، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بينهم وبين الإمبراطور، إذ ما كاد الأولون يرحلون حتى قدموا هم وأخذوا الإمبراطور فى مدى أيام قلائل وحملوه إلى ميناء البندقية[٨٤] بإيطاليا.

أقمت فى جزيرة خيوس هذه عشرين يوماً عاطلاً بلا عمل أقوم به ، ثم شددت الرحال إلى تركيا مبتعداً كثيراً عن تلك الجزيرة حيث بلغت مكاناً يسمى « فوجافكيا » الذى يقولون إنه أحد موانى تركيا حيث توجد به جالية جنوية ، وقابلت فى هذا الميناء صديقاً لى كنت قد عرفته فى إشبيلية ، وإذ كان يتمتع بشىء من النفوذ بين الأتراك فقد سألته أن يرسل معى أحد رجالاته إلى طروادة وأن يستأجر لى جياداً ، فلبى طلبتى ، وسافرت عن طريق البر مدة يومين وصلت بعدهما إلى مكان يزعمون أنه طروادة ، بيد أننى لم أجد أحداً ما تمكن من إمدادى بأية معلومات عنها ، ثم جئنا إلى « ايليام » كما يسمونها وهى بقعة بحرية مواجهة لميناء « تنيدُوس » ، ويزدحم هذا القطر بأجمعه بالقرى التى يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، ويعتبر الأتراك المبانى القديمة آثاراً لا يصح أن تمتد إليها يد الهدم ، ولكنهم يقيمون منازلهم بجوارها ، وكان الذى جعلنى أعرف أن هذا المكان هو فى الواقع طروادة القديمة هو منظر مثل هذه المبانى العظيمة الدائرة وكثرة الرخام والأحجار ، وكذلك هذا الشاطىء وقد أطلّت عليه من الجهة المقابلة ميناء « تينيدوس » وقيام تل كبير كأنما هو أثر لصرح مشمخر قد هوى ، ولم أستطع معرفة شىء أكثر من ذلك فعدت الى خيوس حيث ألفيت سفينتى قد أعيد ترميمها بصورة مكنتنا من الإبحار فى مدى يومين .

وتغل جزيرة خيوس هذه كميات كبيرة من الصمغ ، وقد سكنها الجنويون الذين سلبوها من الفرسان ويسمى حكامها أنفسهم بالمايونيز[٨٥] ، ولما كان هؤلاء الفرسان عاجزين عن الدفاع عن ذلك المكان فقد ارتضوا دفع الجزية للجنوية الذين يرفعون علمهم هناك والذين هم فى حاجة إلى هذه الجزيرة فى رحلاتهم إلى سواحل الشام وإلى الدردنيل .

* * *

غادرنا المكان وركبنا البحر، فأخذتنا من كل جانب عاصفة هوجاء أصابت المركب بعطب كبير ما لبث الملاحون أن تداركوه — وهم بارعون كل البراعة فى هذا الفن —، فبذلوا جهدهم حتى أصلحوه على خير وجه ممكن، ومن ثم سافرنا تاركين على يسارنا جزيرة « ميتلين » وهى فى حوزة الجنويين أيضاً، وثنينا برأس «سنت ماريا» وبلغنا جزيرة «تينيدوس» فألقت السفينة مرساها وغادرناها إلى البر .

وفى أثناء إصلاح العطب الذى ألمّ بالسفينة مضينا قدما لمشاهدة الجزيرة التى كانت تبلغ مساحتها قرابة ثمانية أميال أو تسعة، وهى مليئة بالأرانب البرية، وتزخر بساحات الكرم ولكنها جميعها قد فسدت، وتبدو ميناء تينيدوس حديثة البناء حتى لكأنما قد شيدها اليوم حذاق، وقد رصفت بالأحجار الكبيرة وقامت بها الأعمدة الضخمة، وهنا تجد السفن خير مرفأ لها، ورغم توفر أمكنة أخرى صالحة لرسوّ السفن إلاّ أن هذا الميناء هذا هو أصلحها كلها لوقوعه تجاه مدخل مضيق الدردنيل .

ويطل على الميناء تل كبير قد علته قلعة شديدة الحصانة كانت فيما مضى سبب كثير من النزاع الناشب بين البنادقة والجنويين، مما حمل البابا على الأمر بهدمها حتى لا تكون فى يد أحد الفريقين، غير أن هذا العمل كان بلا شك أبعدما يكون عن محجة الصواب لأن الميناء من أحسن مرافىء العالم، إذ لا يتأتى لسفينة ما أن تدخل المضيق دون أن تلقى مراسيها أولا هناك لتتلمس المدخل لشدة ضيقه، ومن ثم فإن الترك الذين يعرفون كثرة عدد السفن التى تصل إلى هناك يسلحون أنفسهم ويتربصون ثمت بالمسيحيين ثم يثبون عليهم فيقتلونهم. ومن هنا يستطيع المرء مشاهدة كثير من مبانى طروادة، كما أن جماعة معينة من الإغريق الذين يعيشون هناك يقومون بنقل الأخبار عمّا يجرى فى ذلك المكان.

رحلنا فى اليوم الثانى، ووصلنا المضايق الشديدة الضيق، وتتسم المياه فى الجانب التركى بشدة الضحولة، وتسمى هذه المضايق بالدردنيل، وهنا يوجد باب طروادة وميناؤها ، أما مياه الشاطىء اليونانى فشديدة العمق ، ويقوم به برج « ڤيتبريو » حيث وجد أخيل مع « باتروكولس » أو كما يقولون هكذا كان يراد . والمضايق فى هذا المكان ضيقة جداً مما ييسّر على المرء فى اليوم الصفو أن يشاهد راية منصوبة على الجانب الآخر ، وهكذا تابعنا السير عبر هذه البرازخ وخلّفنا بعض المدن على الجانبين التركى واليونانى، ووصلنا إلى مدينة جاليبولى، وهى مكان بديع ومرفأ جيد ذو قلعة رائعة ، وكان هذا أول ناحية استولى عليها الترك حينما اكتسحوا اليونان ولم يهدموا الحائط والقلعة بل تركوهما قائمين ـ وهو أمر لم يفعلوه فى أية بقعة أخرى ـ حتى إذا حدث ودارت عليهم الدائرة استطاعوا النجاة .

. . .

غادرنا جاليبولى وجئنا إلى بحر «مرمرة» وهو عبارة عن بحر دائرى داخل الأرض يبلغ عرضه قرابة ثمانية فراسخ، ويسمونه «مرمره» لأنهم يجلبون منه إلى القسطنطينية كل المرمر الذى تحتاجه هى وأسوارها ، وهذا البحر فى يد الإغريق ، ومن هنا وصلنا الى بلد يدعى « اريجلى » وأخرى يسمونها «سلمبريا» وهما المكانان اللذان سمح الترك للإمبراطور أن يبقيهما فى يده فى الأزمنة السالفة عطفاً عليه ولمعاونته لهم .

وفى رحيلنا فى فجر اليوم التالى رأينا جبلا شاهق الارتفاع يبعد عنا أكثر من مائة ميل ، وأخبرونا أنه جبل القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، وجئنا إلى مكان يبعد قرابة ميلين عن المدينة حيث قضينا به ليلتنا تلك، وفى الصباح التالى أرسلت

القارب إلى مدينة بيريه لأفضى بنبأ مقدمى إلى ربان إحدى السفن واسمه «جوان كارو» وهو من أهل أشبيلية ومن أصدقائى الخلص وأعرف أنه موجود هناك فى بيريه، فقدم هو وأصحابه فى زوارقهم لتحيتى، وأردت أن أتوجه فى الحال لأقدم احتراماتى للإمبراطور، غير أنهم ألحوا على كثيراً قائلين إننى أجللهم بالعار إذا لم أذهب أولا إلى بيريه حيث توجد دورهم، وأنه هذا واجب يتحتم على أداؤه، فنزلت أنا ورفاقى فى قوارب القشتاليين، وجاءت سفينتنا معنا ودخلنا ميناء القسطنطينية وغادرناه، ومضينا فى سبيلنا ثم أرسينا عند رصيف «بيريه»[٨٦] وهو من أحسن الأرصفة فى العالم، وتستطيع أية سفينة مهما كانت ضخامتها أن ترسو هناك فى مياه عميقة صافية، وأن تلقى بسلالمها على اليابسة، فأرسيت فى صحبة القشتاليين وكذلك مع أصدقاء آخرين من أمم مختلفة وذهبنا لأداء الصلاة بالكنيسة، ووجدت الوالى البيزنطى الذى يحكم المكان فاستقبلنى استقبالا طيباً، مستفسراً إياى عن أخبار الغرب، وقرر أن كل ما أحتاج إليه لابد وأن يجاب فى الحال، ومن ثم رحلنا، فأقمت مع الربان القشتالى حيث لقيت استقبالا فخما فى الواقع، وحين وصلت إلى هناك ألفيت هدية ضخمة من النبيذ والطيور أرسلها إلىّ الوالى.

وفى اليوم التالى قدم لرؤيتى القشتاليون المقيمون فى القسطنطينية وبيريه، وتذكرت منهم جماعة رأيتهم فى قشتالة ومن بينهم «ألفون دى ماتا» وصيف مولانا «دون جوان» حفظه الله، فالتمس منى أن أقدمه إلى إمبراطور طرابيزون لأنه كان قد قدم مع سفراء المجمع الكنسى وإن كان قد غدى الآن فى مؤخرة القوم، ثم تحادثت مع الإمبراطور[٨٧] رغم أنه هو الآخر قد أصبح غير ذى موضوع، فقد نفى من وطنه مع أخته إمبراطورة القسطنطينية فقبل رجائى واتخذه من رجال حاشيته، وأعطانى فى نفس اليوم قوساً وسهماً لازلت محتفظاً بهما.

الفصل الرابع عشر

القسطنطينية . الإمبراطور يوحنا باليولوجس . أسرة طافور .
قصة الحرب الصليبية الرابعة . استقبال طافور
فى البلاط . مغادرة الإمبراطور إلى أوربة .

. . .

بعد أن أقمت مدة يومين مستجما ذهبت لأداء مراسيم الاحترام لإمبراطور القسطنطينية وبصحبتى جميع القشتاليين ، وارتديت أحسن مالدى ، وازَّيَّنْتُ بشعار فرسان « إسكاما »[٨٨] وهو رتبة الملك جوان ، وأرسلت فى طلب أحد مترجمى الإمبراطور ويسمى « جوان الأثيلى » القشتالى المولد ، ويقال إن الإمبراطور قد اختاره مترجماً لأنه كان ينشد له على الأرغن أغنيات قشتالية .

صحبنى المترجم إلى القصر الإمبراطورى ، وذهب ليعلن إلى الإمبراطور خبر قدومى لرفع فرض الاحترام الواجبة له ، وأبقونى فى الانتظار مدة ساعة بعث الإمبراطور خلالها فى استقدام بعض الفرسان واستعد لمقابلتى ، ثم دخلت القصر وبلغت ردهة أبصرته فيها جالساً على عرش وقد بسط تحت قدميه جلد أسد[٨٩] ، وهناك أديت فروض الاحترام للإمبراطور وأنبأته أن مجيئى إنما كان بقصد رؤيته ومشاهدة مملكته وللتعرف على بلاده وكبار رجالاته ؛ وإن كانت علة حضورى الأولى رغبتى فى اسكتناه حقيقة نسبى الذى أنبئت عنه أنه نبع فى الأصل من هذا المكان ، وأن لى عرقا يمتّ لعرقه الإمبراطورى بوشيجة القربى ، وشرعت فى إخباره عن الطريقة التى قيل إنها سارت عليها ، فأجابنى فى الحال بأننى واجد كل ترحيب ، وأنه مسرور جداً لرؤيتى ، أما عما حدثته عنه بشأن أصلى فقد أمر

بإحضار السجلات القديمة حتى يتضح الحق الصراح عن كل شيء ، وسألنى عن أخبار البلاد المسيحية وأمرائها لاسيما فيما يتعلق بمولاى ملك أسبانيا وعن دولته وحربه ضد المغاربة ، فأفضيت إليه بكل مالدىّ من المعلومات ، ثم استأذنت منه فى الانصراف ودلفت إلى حيث أقيم .

وفى اليوم التالى بعث فى طلبى سائلا إياى أن أمضى للصيد، وأرسل الجياد لى ولمن معى ، فمضيت فى صحبته ومعنا شريكته الإمبراطورة التى كانت موجودة إذ ذاك ، وأخبرنى يومئذ أنه وقف على الأمور التى أردت الاستفسار عنها،وأنه سيأمر حين عودتنا من الصيد بأن يخبرونى عن كل مايتعلق بها فشكرته، فلما كان المساء أبْنَا من صيدنا وترجلنا عن جيادنا،وأرسل هو يطلب أن يمثل فى حضرته أولئك الذين كلفهم بالبحث عن استفساراتى ، فلما جاءوه قالوا إنه حدث فى القديم (ولا أذكر الوقت بالضبط) أن أحد أباطرة القسطنطينية بعث فى أنحاء بلاده أمراً يقضى بأن يدفع النبلاء الضرائب ، وأن يؤدوا ماعليهم من الالتزامات والخدمات،وأن يقومون بإنجاز ذلك كله شأنهم فى هذا شأن العامة ، ونظراً لأن هذا العمل قد عدّه النبلاء إساءة لهم وافتآتا على حقوقهم فقد بحثوا الأمر مع ابنه الأكبر ووريثه ، وأغروه بالوقوف فى صفهم والتحدث إلى أبيه الإمبراطور فى وجوب تجنّب كل مامن شأنه أن يترك وراءه ذكرى كريهة واسماً بغيضاً ، ذلك لأن اقتراحاته فى هذا الصدد كانت ضد النظام والعدالة ولن تؤدى بالنبلاء إلا إلى إرغامهم على حمل السلاح ضده، وهو سبيل لا مناص لهم من السير فيه إذا ما أصرّ على تنفيذ أغراضه السيئة ، فاستمع الأمير إلى شكوى النبلاء ووعد أن يبذل كل ماوسعه جهده،ومضى إلى أبيه الإمبراطور متحدثاً ومتوسلا إليه أن يمنعه كرمه من عمل هذا الفعل ضد نبلاء

البلد الذين يمدونه الحاكم، لاسيما وأنهم هم الذين يعينونه فى مهامه ويجلّونه ، هذا بالإضافة إلى أنه بمعارضته إياهم يدفع ببلاده إلى خطر جسيم ومشقة كبرى ، ثم حذّره من أنه سيجد نفسه فى النهاية عاجزاً عن فرض إرادته عليهم، فلما صكّ هذا الكلام سمع الإمبراطور تأجج غيظاً واستشاط غضباً على ولده الأمير، وطرده من قصره ، ورحل بنفسه — كما يقولون — إلى مدينة أدريا نوبل التى هى اليوم مقر جيوش سلطان الترك وبلاطه ، فلما وصل إلى هناك كان نبأ هذا الأمر قد تردد فى شتّى نواحى الإمبراطورية، وسرعان ماشبت ثورة عارمة حمل لواءها جميع النبلاء وأتباعهم، وتكاتفوا فيما بينهم فصاروا كلهم يداً واحدة وجعلوا الأمير على رأسهم ، ثم قدموا بجيش ضخم إلى القسطنطينية حيث كان الإمبراطور، واستغرقت هذه الرحلة خمسة أيام تقريباً ، فلما علم الإمبراطور بذلك خرج وعسكر بجميع رجاله ورتبت الصفوف الواحد تلو الآخر ، فأرسل الأمير مرة أخرى يلتمس من أبيه ألا يكون سبباً فى مثل هذا الجرح الدامى والخراب الكبير وإلا فلا سبيل أمامه إلا محاربته إياه ، فازداد غضب الإمبراطور عن ذى قبل قائلا إن الأمور يجب أن تسير الآن كما هى ، وأنه مصمم على ما اعتزم. وجاعل الأمير ومن معه يدفعون حياتهم ثمناً لذلك العمل ؛ فلما رأى الأمير إصراره ، وأن الحرب موشكة على الاندلاع ، إتفق مع أبيه على أن يمضى الإمبراطور إلى القسطنطينية وأن يرجع هو نفسه « إلى أدريه نوبل » وأنهما حينذاك لابد أن يصلا إلى شروط ، وفعل الأمير ذلك تحدوه الرغبة فى تجنب محاربة أبيه وقتاله ، واتفق الجانبان على ذلك، وعاد كلّ إلى مكانه .

والآن وقد رأى الأمير أن لاسبيل سوى الحرب لفض المشكلة فقد اتصل بأحد الأمراء وهو أخوه ، وحبّب إليه الوقوف إلى جانب الشعب قائلا له إن

الرب لن يمسّه بأذى لمحاربته أباه ، وإلاّ فالأجدى له ألاّ يقيم ببلد يقع فيه مثل هذا الأمر ، ومن ثم غادره إلى إسبانيا ، وبلغ قشتالة فى الوقت الذى كان الحكم فيه بيد دوق ألفونسو الذى غزا طليطلة ، والذى يسميه البعض بألفونسو ذى اليد المدببة ، وفى هذا المكان الجديد عُرف الأمير باسم « كونت بدرو» ، وأنجب إبناً سماه دوق « إستيفان إلان ، فلما رأى النبلاء اليونان أنفسهم وقد حرموا من قائد كهذا القائد ــ لأنه كان فارساً عظيما ــ ولأنه أثبت براعته بكثير من الأعمال الدالة على الروعة فى السلاح سواء فى أسبانيا أو قبل رحيله إليها فقد أخذوا أخاه الأصغر ـ رغم أنه كان لا يزال شابا ـ وقبّلوا يده ، ونادوا به إمبراطوراً على بلاد اليونان ، ثم ورحلوا به من مدينة أدريا نوبل بجميع رجالهم المسلحين ، وزحفوا على القسطنطينية قصد إجلاس هذا الشاب على العرش الإمبراطورى ، فلما أنبىء الإمبراطور بذلك فعل مافعله من قبل ، فخرج من المدينة لصدّهم ولم يكن ثمت مندوحة عن القتال ، غير أنه غُلب على أمره وحاقت به الهزيمة ووقع فى الأسر ، وقُتل كثيرون من رجاله وأخذ البعض الآخر ، ودخل النبلاء المدينة دخول الظافرين ، وأجلسوا على العرش الإمبراطورى مولاهم الأمير الصغير الذى استقدموه معهم ، وأقاموا حرساً قويا على أبيه الذى مالبث أن مات بعد أيام قلائل من مرضه ، وبقى الأمير يحكم الإمبراطورية فى هدوء ، وجَبّ القوانين التى فرضها أبوه ، وسنّ أخرى منح بها النبلاء حقوقا أكثر من تلك التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ومن ثم يقال إنه لا يوجد فى أى بلد من بلاد العالم مثيل للحرية التى ينعم بها النبلاء فى اليونان ، وأنه ليس هناك من رعيّة أكثر خضوعاً من اليونان الذين هم فى الواقع رقيق لطبقة الأشراف ، غير أن خطايا المسيحيين أدّت إلى إصابة الرعايا

والنبلاء على السواء بالعبودية المؤلمة نظراً لأن ساداتهم أصبحوا من الترك أعداء الإيمان.

* * *

أما الأمير الآخر فإنه لما جاء إلى قشتالة احتفى به القوم احتفاء كريماً، وتلقاه الملك بالتشريف العظيم، ويقال إن الملك كان يتأهب فى هذا الوقت لشنّ الحرب على المسلمين، فزوّج الأميرَ من إحدى إخواته الشرعيات، وألقى إليه بمقاليد حكم المملكة أثناء خروجه للحرب، ويقال إنه كان فارساً شريفاً، شديدالبأس، بالغ الصراحة، غايةً فى الفطنة، وسموه « دون بريلان »، ويقولون إنه دخل طليطلة وأقام الملك بها، وزيادة على ذلك فإنه هو الذى استرد المدينة وردّها إلى الطاعة حين جاهرت بالعصيان وثارت، فحارب العصاة وقهرهم، ويقولون أيضاً إن هذا هو السبب الذى كافأه من أجله أهل طليطلة بكل هـــذه الامتيازات التى لازال مواطنو طليطلة يتمتعون بها حتى يومنا هذا، ولما مات دفنه القوم فى كنيسة الملوك القدماء فى طليطلة، وحلّوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته، وهى ذات الأسلحة التى يحملها أقوى الفرسان وأجودهم « دون فرنانت الفارس » الطليطلى كونت «ألبا» لأنه منحدر مباشرة من صلب هذا الأمير اليونانى الذى جاء إلى قشتالة، كما أننى أيضاً أحمل نفس هذه الأسلحة لأننى أمتّ بعِرْق إلى هذه الأسرة، وأن « دون بيرو روز طافور » الذى دوّى اسمه فى الاستيلاء على قرطبة كان حفيد كونت « دون إستيفان إلآن » الذى هو ابن حفيد الأمير «دون بِرِيلآن» الذى أتكلم عنه، وربما كان من الملائم ـــ أن أروى ـــ نقلا عن تاريخ قشتالة ـ كيف أن الكثيرين منهم ـــ ابناً عن أب ـــ قد تسلسلوا

مبارزة من حولية هولندية ترجع إلى القرن
الخامس عشر الميلادى أو مستهل السادس عشر .

من هذا النسب حتى الآن ، وإذا كنت أحمل المتاريس رَنْكاً على شعارى فقد جاء ذلك عن طريق الزواج ، وقد اختلطت الذرارى فاختلطت الأسلحة بعضها ببعض .

ولما وقفت على كل هذه البيانات سألتُ الإمبراطور عمّا يحول بينه وبين حمل هذه الرنوك التى جرت عادة الأباطرة فيما مضى على حملها ، وأعنى بها أسلحة أسرتى ، فأخبرونى بأنه حدث منذ قرن أو قرن ونصف من الزمان — وربما كان أكثر من ذلك — أن جهّز البنادقة أسطولا[٩٠] ضخما زعموه قادما لمساعدة الإمبراطور ضد الترك ، حتى إذا قاموا به إلى القسطنطينة أحسن الإمبراطور وجميع اليونان لقاءهم ، فراح البنادقة يقيمون فى شتى رحاب المدينة ، لكن يظهر أنهم كانوا قد دبروا خطة أخذوا فى تنفيذها لأنهم انضموا إلى الأهلين فى ثورتهم ضد الإمبراطور وحاربوه معهم ، وتمت الهزيمة على الإمبراطور لعدم توقعه هذه الخيانة ، ونجحوا فى إخراجه من المدينة وقتل الكثيرون ، فهرب الإمبراطور إلى «للورة» التى كانت تسمى قديماً «أخايا» ، وهى إمارة من إمارات ورثة الإمبراطورية ، واحتل البنادقة المدينة وظلوا بها سبعين عاماً كاملا ، ونهبوا كثيراً من الآثار المقدسة التى حملوها معهم إلى البندقية والموجودة بها حالياً ، ومنها جثمان القديسة هيلينا والقديسة مارينا وغير ذلك كثير ، كما أفسدوا عدداً كبيراً من المبانى الرائعة ، وحملوا معهم عمودين كبيرين كبيرين أقاموا عليها تمثال حاميهم القديس على شاطىء البحر ، وهما باسقان كالبرجين ومحفوظان حفظاً جيداً حتى ليصعب التصديق أنهما قد نُقلا من قبل[٩١] ، ويوجد فوق باب كنيسة « القديس مرقص » أربعة جياد نحاسية ضخمة قد غشيت بطبقة كثيفة من الذهب ، ويوجد أيضاً حجر الشب والرخام ،

وهذه كلها مما أخذوه من القسطنطينية أثناء احتلالهم إياها ، بل لقد كانوا على وشك نقل الحكومة من البندقية إلى القسطنطينية ، ولم يُقْعِدْهم عن تنفيذ هذه النية سوى نصيحة شيخ طاعن فى السن نهاهم فيها نهياً مطلقاً عن مغادرة المدينة التى وثبوا منها على جميع المدن الأخرى .

وفى أثناء احتلال البنادقة للقسطنطينية[٩٢] مات الإمبراطور وكذلك ولده ، ولم يبق سوى حفيده الذى تزوج إحدى بنات ملك المجر وأصبح فارساً قديراً ، فواعَدَ أهلَ القسطنطينية والإقليم المحيط بها على يوم يثورون فيه جميعاً ، وأنه سيكون متأهباً بكل ما يستطيع جمعه من قوة لإنقاذ المدينة ، فإذا أخذ المدينة آل إليه كل شىء ؛ فكان ماتم الإتفاق عليه .

فلما كان اليوم الموعود ثار الناس ضد البنادقة وحصروهم فى مكان واحد فى المدينة حتى لا يستطيعوا بلوغ سفنهم ، وأنفذوا فى طلب الأمير الذى دخل المدينة وأعمل القتل والأسر فى جميع البنادقة وتربع على العرش الإمبراطورى ، ودخل الناس عليه أفواجاً مقبلين يده ومنادين به حاكما عليهم ، وأصابوا غنيمة كبير من البنادقة ، كما تسلموا فدية مالية ضخمة منهم ، أما هو فقد ساد حكمه الهدوء ، ويقال الآن إن هذا الإمبراطور الذى استرد الإمبراطورية وتولى مقاليدها لم يستطع أحد ما أن يحمله على التخلى عن الأسلحة التى كان يحملها سابقاً ، التى كانت ولا تزال على شكل حلقتين متصلتين بعضهما ببعض ، وعجز الكل عن إرغامه على حمل الأسلحة الإمبراطورية الخاصة بالعرش ، وكانت حجته على الدوام أنه كسب الإمبراطورية وهو يحمل هذه الرنوك ، ولا يوجد شىء مطلقاً يستطيع حمله على التخلى عنها ، ومن ثم بقيت حتى اليوم على ما هى عليه ، ومع ذلك فلا يزال فى الإمكان حتى اليوم رؤية الأسلحة القديمة على

أبراج المدينة ومبانيها وكنائسها ، ولا يزال الأهالى — حين إقامتهم عمائرهم الخاصة — يضعونها عليها .

فلما سمعت ذلك أصررت على أنه يتحتم على الأباطرة حمل هذه الأسلحة طالما هى أسلحة الإمبراطور الحقيقية ، زد على ذلك أنها هى الرمز الذى يؤيد السلطة وليس الأشخاص الذين استردوها ، لاسيما منذ أن استعاد الأهلون المدينة ونصبوه حاكما عليهم ، فأجاب الإمبراطور على ذلك بأن المسألة لاتزال موضع أخذ وردّ بينه وبين شعبه ، فلما وقفت على خبر ذلك كله أفضيت إلى الإمبراطور بما حدث فى إسبانيا ، وأخبرنى هو بما حدث هناك .

هذا كل ما استطعت الوقوف عليه عن خبر هذه الأسلحة وما آل إليها أمرها .

ومنذ ذلك الحين أخذ الإمبراطور فى معاملتى بود عظيم كشخص تجرى فى عروقه نفس الدماء التى تجرى فى عروقه هو أيضاً ، وتمنى صادقاً لو بقيت فى بلده وتزوجت واستقر بى المقام حيث أنا ، والحق أننى فكرت فى مثل هذا العمل نظراً لما رويته من قلة سكان المدينة وحاجتها إلى الجنود الأقوياء ، ذلك لأن البيزنطيين يقاتلون أمماً بالغة القوة ، وقد وجدت بالمدينة فى خدمة الإمبراطور كثيراً من القشتاليين وجماعات من الأمم اللاتينية الأخرى ، وقد أبدوا لى — طيلة وجودى هناك — كثيراً من التبجيل والتقدير .

وفى ذلك النهار تقدّم أحـــد فرسان الأسرة ممن كانوا يوجدون هناك ودعانى لتناول الغذاء فى اليوم التالى فوعدته بإجابة سؤاله ، فلما انفضّ القداس يممت شطر بيته حيث ألفيته فى انتظارى وتناولت طعامى معه وقدّمنى لزوجته وأبنائه ، وعاملونى معاملة تنطوى على الصداقة الخالصة ، فلما انقضى الغذاء صرف كلّ من كان حاضراً وذهب إلى حجرته ولبس قميص « إسكاما » وهو شعار مولانا الملك ، ثم دخل علىّ وحادثنى بالقشتالية ،

قائلا : « أيها السيد الفارس ، مرحباً بك ، هاهو ذا بيتى بكل مافيه رهن إشارتك كما لو كنت أخى ، فلقد حبانى ملكك بالشرف السامى والمنافع الجمة ، كما لقيت كرم الوفادة من فرسان بلدك ، وإذا كنتُ قد أمسكتُ حتى اللحظة عن محادثتك بلسانك بين الناس فمردّه إلى أننا نرى العيب فى التخلى عن لغتنا واصطناع لغة غريبة عنا ، ومع ذلك فنظراً للحب العظيم الذى أكنّه لشعبك ولك فقد آليت على نفسى — حين نكون على انفراد — أن أجعل نفسى مثلك قشتالياً فى كل شىء » . ومنذ تلك الساعة عاملنى هذا الفارس بمنتهى الاحترام ، واستقدم إحدى إخواته إلىّ — وكانت إمرأة بارعة الجمال — قائلا إنه يتحتّم علىّ — طول إقامتى هناك — أن أعاملها كصديق أحترمه ثم زكّانى لديها ، والواقع أننى أعتقد أنه كان يرغب فى أن أتزوجها ، ولقد منحتنى هذه السيدة أشياء كثيرة ، منها حيوانان أخذتهما معى إلى قشتالة ، أعطيت أحدهما إلى الملك واستبقيت الآخر عندى .

* * *

وفى هذا اليوم بعث الإمبراطور إلىّ داعياً إيّاى للخروج للصيد ، وعدنا بكثير من الأرانب والحجلات والدراج وغيرها من الطيور التى تكثر هناك كثرة هائلة ، فلما رجعنا إلى القصر استأذنت فى الانصراف وذهبت إلى محل إقامتى حيث أمرَ الإمبراطور بتزويدى بكل ما أنافى حاجة إليه ، ولاشك فى أن رغبته قد انصرفت إلى إحاطتى بالشرف وإغداق المنح علىّ ، وراح هو وشريكته الإمبراطورة منذ ذلك اليوم — إذا أرادا منى مصاحبتهما هما وحاشيتهما فى الخروج للصيد — بعثا إلىّ الجياد ذكرين ماهم واجدوه من متعة كبرى فى مصاحبتى إياهم .

وبعد انقضاء خمسة عشر يوماً على زيارتى للقسطنطينية ، رحل الإمبراطور فى

الأغربة البندقية لمقابلة البابا ، وألحّ علىّ كثيراً أن أرافقه ، وكان بودّى لو فعلت ذلك لولا أننى كنت مضطراً لأن أرى أولا بلاد اليونان وتركيا وكذلك بلاد التتار ، فلما رأى عجزه عن إقناعى بما يريد أوصى بى زوجته الإمبراطورة وأخاه «دراجس»[٩٣] ـ وكان وريثه فى العرش الإمبراطورى، وقد قتله الأتراك بعدئذ ـ وسافر الإمبراطور فى أبهة عظيمة ، ورافقه فى سفرته هذه إثنان من إخوته وثمانى مائة رجل من الأشراف ذوى المكانة الرفيعة ، وأقيم احتفال عظيم يوم رحيله[٩٤] وانتظم كل واحد فى موكب من مواكب الجمعيات الدينية ، وتلاقى الجميع عند مكان ركوبه السفينة ، كما أن فئة كبيرة ركبت البحر مسيرة سفر يوم إلى جوار الأسطول وكذلك فعلتُ أنا فعلهم ، ثم استأذنت وعدتُ إلى القسطنطينية ، غير أن الإمبراطور أجازنى كارهاً وقال إنه لو كان معى رجالى لما أذن لى فى الرجوع ، ومن ثم تركته ، وسألنى أن أزوره قبل عودتى إلى وطنى ، فوعدته وأنجزت ذلك الوعد فيما بعد .

الفصل الخامس عشر

ادريانوبوليس . وصف السلطان العثمانى .
البحر الأسود . الوصول إلى
طرابيزون

. . .

حين عدت إلى القسطنطينية استأذنت من الطاغية دراجس — ممثل الإمبراطور إذ ذاك — فى الذهاب إلى أدريانوبوليس التى هى أعظم مدن اليونان قاطبة باستثناء القسطنطينية حيث كان الترك قد حشدوا بها جيوشهم ، فبعث الطاغية فى طلب فئة معينة من التجار الجنوية الذين كانوا بها وأمرهم بأن يدبّروا لى إمكان رؤية السلطان التركى ودولته وشخصه وأن يضمنوا سلامة عودتى ، وحدث أن كان قد وصل أخو أحد هؤلاء التجار وكان أثيراً جداً لدى الطاغية كما كان فى الصميم من ثقته ، فقبل هذا التاجر — إستجابةً لخاطره — أن يحملنى معه ويطلعنى على كل شىء ، فرحلنا فى مدى ثلاثة أيام سالكين الطريق المؤدى إلى بلاد اليونان ، مارّين ببعض أماكن معينة صغيرة لاحاجة لوصفها هنا ، حتى بلغنا « أدريانوبوليس » بعد رحلة استغرقت تسعة أيام ، فأقمت مع الجنوىّ فى بيته الذى كان بالمدينة ، وبعث السلطان التركى فى طلبى مسفساراً منى عن وقت رحيل الإمبراطور وكيفية سفره وهيئته وفى سفن مَن ، وبينما أنا أفضى إليه بخبر هذه الأشياء تسنى لى رؤيته ورؤية حاشيته وشعبه ، وكان يبدو عليه أنه يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، كما كان حسن البنية مليح

التقاطيع ، تدل هيئته على الفطنة ، ذا نظرات صارمة ، وتحوطه حاشية رائعة لم يتأتّ لى قط أن أرى شبيها لها ، إذ كان معه جميع قواته التى تبلغ ستمائة ألف راكب ظهراً ، وإننى لمشير إلى أولئك الذين أمدّونى بهذه المعلومات حتى لا أبدو مغالياً فى ما أروى ، والحق أنى أخشى أن أعيد كل ما أنبأونى به ، فلا يوجد قط أى ماش فى أرجاء بلده ، بل يمتطى الجميع صهوات جياد ضامرة بالغة الصغر .

ويقيم السلطان العثمانى وقومه على الدوام فى معسكرات بالميدان : سواء أكان الزمن صيفاً أم شتاء ، وعلى الرغم من شدة قرب المدينة منه إلا أنه لا يدخلها إلا إذا كان فى صحبة حريمه للاستحمام : الأمر الذى تهيأتْ لى رؤيته بفضل معونة الجنوى ، فقد ذهب السلطان للحمام ترافقه الطبول والموسيقى وبين يديه المنشدون يغنّون ، وفى صحبته حشد كثيف من النساء اللائى يقال إنهن جواريه وعددهن ثلاثمائة أو يزيد ، وكان لدخولهم المدينة ضوضاء شديدة وجلبة صاخبة ، وظلوا مقيمين بها حتى منتصف الليل حين آب السلطان التركى إلى معسكره .

فلما كان اليوم التالى خرج السلطان للصيد ، فرتّب لى الجنوى أمر الذهاب كذلك ، فكان هناك أناس كثيرون على ظهور الجياد ببزاتهم وصقورهم وكلاب الصيد المعلمة وكافة أدواته ، ومن عادة الترك أن يحملوا فى السرج خطافاً حديديا ، ومعهم طبول الصيد وفى جعابهم القسى ، ولما كان القطر بارداً وغالباً ما يعمه الجليد مما يسهل معه سقوط الجياد فإن الرجال يلبسون على الدوام أحذية قوية جداً من الجلد الدمشقى تصل إلى ركبهم ، وتثبت بها المهاميز ،

فإذا كبا الحصان استطاعوا تخليص أرجلهم دون أن تجرح وتبقى الأحذية فى الركاب .

* * *

ويوجد هنا كثير من الطيور والبزاة وشتى أنواع الطير الموجود مثلها فى إسبانيا .

ويتدثر الرجال على أسلوب أهل الريف فيلبسون عباءات وجبباً طويلة من صنف واحد مشقوقة الإزار من الأمام ، وقد نسجت من الصوف الجميل والحرير الموشى المستوردين من إيطاليا ، بيد أن الشىء الذى أدهشنى أكثر من سواه هو كثرة أنواع الفراء : من القاقم والسمور وغيرهما من جلود أقل منهما قيمة كجلد الثعلب الذى يبالغون فى ثمنه مبالغة قصوى لنوعه ورقة ملمسه وشدة دفئه وملاءمته لمثل هذا الجوّ البارد ، ويغطى الكثير منهم رءوسهم بقبعات من التيل ، على حين يضع البعض الآخر قبعات تشبه تلك التى ترتدى فى حفلات اللهو الريفية فى « بيرجوس » ، ويستعملون سروجاً كسروج الحمير ولكنها كثيرة الزينة ومغطاة بالأقمشة الجميلة ، وركاباتهم أميل إلى القصر منها إلى الطول .

* * *

عدنا فى ذلك اليوم إلى المدينة فأخذنى رفيقى لمشاهدة المعسكر والأحياء التى يقيم فيها الفرسان وغيرهم من الكبار ، وهم يحتفظون هنا ـ شأنهم فى هذا شأنهم فى بيوتهم ـ بكل ما تتطلبه راحتهم من استبقاء نسائهم معهم وغير ذلك .

والمعسكرات رائعة مجهزة بكل ما تستلزمه المتعة الشخصية ، لكن الأهالى مع ذلك يقاسون كثيراً من شظف العيش الذى لم يعودوا ينكرونه لطول ألفتهم إياه ، وتبقى الجياد دائماً فى العراء دون حظائر ، وأعتقد أنها رغم نحافتها

وصغرها الطبيعى إلا أن الطريقة التى تترك عليها تجعلها أقل جهداً ، والواقع أنها تبدو فى بعض الأحيان وكأنها قلّ أن تستطيع لراكبيها احتمالا ، وعلى الرغم من صعوبة تصديق عدد جيادهم فاننى أحسب أن ما فى بلدنا قشتالة من من الدواب وما فى غاليسيا وفى الجبال من خيول الجر والبغال والأفراس والحمير أكثر مما عندهم ، وإننى لأوثر امتطاء حمير من حميرنا على امتطاء جواد من جيادهم فى الحرب أو المباراة .

* * *

وللترك أملاك شاسعة ، ولكن الإقليم جبلى شديد الجدب قليل السكان، على حين أن بلاد اليونان — التى يحتلونها — أرض منبسطة مثمرة رغم أن سكانها قد تضاءل عددهم الآن بسبب الحروب واتحمالهم عبء القتال بأكمله ، وللقسوة التى يلاقونها على يد الترك الغلاظ القلوب ، والواقع أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن تموين جيش ضخم كهذا الجيش .

والترك — والحق يقال — شعب نبيل ، فهم يعيشون فى قطرهم عيش السادة المترفين سواء أكان ذلك فى نفقاتهم أو فى أعمالهم أو طعامهم أو ألعابهم التى يغلب عليها الميسر ، وهم أهل مرح وطيبة ، وحديثهم عذب مستساغ، وإذا ما تكلم أحد عن الفضيلة فى هذه النواحى إكتفى بتشبيهه بالتركى .

* * *

ولما فرغت من رؤية السلطان التركى وأهل بيته وبطانته وبلده أخبرت رفيقى أنه يحسن بى أن أعود إلى القسطنطينية ، لكننا اضطررنا للإقامة يومين آخرين لعمل كان لابد لنا من إنجازه مع جماعة من تجار حاشية السلطان الذى خرج فى أحد هذين اليومين للقنص، فصحبته لأرى الاجتماع الذى كان أعظم

ما تسنّى لى مشاهدته من ناحية العدد والجياد والعرض العام، فقد ارتدى الرجال أثمن ما لديهم من الملابس وأغلاها حسب مكانتهم ، لكننى لم أر قط فى حياتى مثل هذه البطانة فى كثرتها وثرائها .

فلما كان اليوم التالى رحلنا قاصدين القسطنطينية سالكين نفس الطريق الذى جئنا منه ، وأظهر الطاغية دراجاس سروراً كبيراً لرؤيته إياى ، وشكر الجنوىّ شكراً قلبياً للعناية التى أحاطنى بها ، فبقيت مستجما بالمدينة ثمانية أيام التمست فى أثنائها من الطاغية أن يتفضل بمخاطبة قائد سفينة هناك مخبرا إياه برغبتى فى عبور البحر الأسود للذهاب إلى مدينة « كيفا » التابعة للجنوية والقريبة من بحر أزوف ، فأرسل الطاغية فى الحال إلى الربان وسأله أن يحملنى معه وأن يكرمنى ، فوعد بذلك . كما تكلم صديقى الكابتن « جوان كارو » القشتالى مع أحد الجنوية وأوسق سفينته ببعض تجارة له إلى « كيوس » و « رودس » كى يكون المتفضل عليه ، كذلك أعطانى هذا القشتالى مؤونة للرحلة ، فجهزنا أنفسنا بعدئذ وأبحرنا وجئنا إلى البسفور الذى يمتد مسافة ثمانية عشر ميلا من القسطنطينية حتى مدخل البحر الأسود ، فلما دخلناه سرنا يمينا شطر تركيا، ومررنا بأماكن كثيرة حتى بلغنا قلعة يسمونها « صنوب » فى تركيا ولكنها تابعة للجنوية فألقينا بها مراسينا ، وأقمنا يومين أفرغنا خلالها ما معنا من تجارة واستبضعنا بدلها أخرى ، ووجدنا الترك فى هذه الجهات يقطعون الخشب الذى يصنعون منه أقواسا قوية جداً ، ويدفنونها على شاطئ البحر خوفا من العقاب الشديد الذى يوقع بهم إذا ضُبطوا وهم يبيعونها للمسيحيين ، فإذا أبصروا السفن مارة بهم نبشوا عنها فأخرجوها وباعوها .

* * *

رحلنا من « صنوب » وظللنا مبحرين مصاقبين لشاطئ البحر الأسود

حتى بلغنا طرابيزون التى كانت تسمى فى القديم « ساموتراس»، وإمبراطورها يونانى نصرانى،ويقال إن أبا الإمبراطور الحالى رغب فى أن يحرم أخاه الأكبر من الإرث ، فاتصل بالسلطان التركى سائلا إياه معاونته فقتل أباه ، وكان له ولدان فقتل الأصغر منهما أباه ، وهكذا حقت كلمات الانجيل القائلة « بنفس الكيل يكال لكم » ، فكان الأخ الأكبر هو الذى رأيته فى القسطنطينية يعيش فى المنفى مع أخته الإمبراطورة اليونانية ، ويقال إن علاقاته بها آثمة .

الفصل السادس عشر

طرابيزون . المغتصب . كافا . سوق الرقيق .
شراء المؤلف لثلاثة من العبيد . تجارة
الكافيار . الخان العظيم . التتار .

. . .

تشتمل طرابيزون على قرابة أربعة آلاف نسمة ، وهى حسنة التسوير، ويقال إن الأرض بها مثمرة وأنها تغل دخلا كبيراً ، ولما بلغناها نزلنا إلى اليابسة وذهبنا لرؤية الإمبراطور[٩٥] الذى استفسر منى عن إمبراطور القسطنطينية وكيف رحل إلى إيطاليا وعمن استصحبهم معه ، كما سألنى عن أخته الإمبراطورة وأخيه الذى كان قد نفاه ، وقد فعل ذلك كله لأنه أراد أن يعرف منى عما إذا كان صدقا ما قيل من أن أخاه خطب ابنة صاحب ملطية، وأن هذا السيد وجماعة الجنوية والإمبراطور قد أمدّوه بأسطول ضخم لمحاربة طرابيزون ، فأكدت له صدق ما سمع . وإذ ذاك اكتأب خاطره أشد الاكتئاب ، وأجاب بأنّ لديه من القوة ما يكفى لمقاومتهم كلهم بل وأكثر منهم ، وراح يمطرنى بالأسئلة الجمة عساه أن يعرف من أنا وأين أذهب ، وحثنى على الإقامة هناك واعدا إياى — فى سبيل مرضاتى — بإرسالى على ظهر إحدى سفنه لمشاهدة ما أتطلع لمشاهدته ، فأجبته شاكراً إياه رغبته فى بقائى معه وإن أفهمته أننى لا أستطيع إجابة سؤاله مادام لا بد لى من إنجاز رحلتى والعودة إلى وطنى فى أمد ليس لى أن أتجاوزه ، لأن مولاى الملك كان

ماضيا إلى محاربة المسلمين ، وزيادة على ذلك فلو أن الظروف كانت غير هذه فإنى لا أستطيع الإقامة عنده لأنه متزوج من ابنة رجل تركى ولا بد من أن يحدث له سوء ما من جراء هذا الزواج ، فأجاب بأن الرب غافر له هـذا العمل لأنه اقترن بها بنية تحويلها إلى النصرانية، لـكننى قلت له : « بل إنهم يقولون يامولاى إنهم زوجوها لك كى تحولك أنت إلى الإسـلام بسبب ما تطمع أنت فيه منها ولقلة ما بيدك » فأمر بأن يجهزونى بما أحتاجه من الطعام، وسألنى العودة مرة أخرى .

حينذاك سافرت مبحرا إلى « كافا »[٩٦] وهى جزء من إمبراطورية التتار ، وإن كانت المدينة ذاتها فى يد الجنوية الذين أذن لهم بالسكن فيها ، ولم يكن يدور بخلد التتار أن الجنوية سيستقرون هنالك بمثل هذه الأعداد الضخمة، فألقينا مراسينا فى الميناء وجئنا إلى الخان الذى يتخذه قائد السفينة سكنا له وبقينا به ، حتى إذا كان اليوم التـالى ذهبت لرؤية دير القديس فرنسيس البالغ الحسن وحضرت القداس ، ثم مضيت بعدئذ لمشاهدة الحاكم الذى تلقانى لقاء طيبا ليس بعده غاية لمستزيد ، وسألنى عما أحتاجه وأريده ، وأنبأنى بسروره فى أن يمدنى بكل لوازمى لشعوره بالحب الـكبير لأمتى وحقها عليه، فقد عاملته أحسن معاملة حينما كان فى أشبيلية ، فشكرته من قلبى ، ثم أخذت أتجول فى المدينة قبل أن يسدل الليل ستره ، وقد ملأ العجب نفسى لرؤية كثير من الأشياء الغريبة على .

والمدينة كبيرة جدا تضاهى أشبيلية فى حجمها أو لعلها أضخم منها ، كما أن سكانها ضعف سكان أشبيلية ، وهم خليط من المسيحيين والـكاثوليك واليونان وجميع شعوب الدنيا ، ويقال إن إمبراطور التتار كان قد استولى عليها

وخرّبها مرات عـدة لولا أن الأثرياء وأهالى الأقطار المحيطة بها لم يقبلوا ذلك لاتخاذهم إياها مكاناً يمارسون فيه أعمالهم الشريرة وسرقاتهم وجرائرهم كبيع الأب أطفاله والأخ أخاه ، وتقوم جميـع شعوب فارس بهذه الأمور وما هو أسوأ منها، فحينما يغادرون المدينة يبيعون وجوههم شطرها ويسحبون قوسا ويرمون حائطها بسهم منه قائلين إنهم يتخلصون من الخطايا التى اقترفوها ، ويزعمون أكثر من ذلك أن بيع الأطفال ليس خطيئة لأنهم عطية أعطاهم الله إياها للمنفعة ، وأن الله سيرعى الأطفال حيثما ذهبوا أكثر مما يرعاهم لو كانوا مع آبائهم ولعل ما يباع هنا من الرقيق ـ ذكوراً وإناثاً ـ أكثر مما يباع فى أى مكان آخر من العالم ، ويوجد بهذه المدينة وكلاء سلطان مصر الذين يشترون العبيد ويرسلونهم إلى القاهرة حيث يسمّون بالمماليك .

وبيد المسيحيين مرسوم بابوى يخوّل لهم شراء العبيد النصارى من الأمم الأخرى والاحتفاظ بهم منعاً لهم من الوقوع فى أيدى المسلمين حتى لا يحولوهم عن دينهم ، وهؤلاء الرقيق من الروس والقوقاز والجراكسة والبلغار والأرمن وسواهم من شعوب العالم المسيحى ، ولقد اشتريت بكافا جاريتين وعبدا لا زلت أحتفظ بهم جميعا عندى فى قرطبة مع أولادهم . أما البيع فيتم على الصورة التالية ، هى أن يجرد العبيد ـ ذكورا كانوا أم إناثا ـ من كل ما عليهم من الثياب ، ثم يطرحون عليهم عباءة من اللباد ويعلنون عن الثمن ، وبعدئذ يخلعون الغطاء عنهم ويدعونهم يسيرون جيئة وذهابا ليرى الناس إن يكن ثم عيب جسمانى ، ويقطع البائع على نفسه عهداً بردّ ثمن العبد لشاريه إن مات العبد بالطاعون فى مدى ستين يوما ، وإذا تنوعت جنسيات الرقيق وكان من بينها تتارى أو تتارية زيد الثمن بقدر الثلث ، اذ من الثابت المقرر أن لم يحدث أن خان تتارىّ مولاه .

ومدينة كافا غير حسنة التسوير وجولها خندق صغير جداً ، ولكنها مجهزة تجهيزاً كاملا بالسهام والمدافع الكبيرة والصغيرة والبنادق والمدافع القديمة الطراز وشتى ضروب آلات الدفاع التى قد يوجهونها أحياناً ضدّ العزّل من السلاح رغم عدم رغبتهم فى إصابتهم بأى أذى لما يجنونه منهم من أرباح طائلة ، وقد حدث قبل أيام قلائل أن زحف أهل المدينة بقواتهم وآلاتهم الحربية للاستيلاء على مدينة « كوركان » كبرى مدن إقليم التتار ، غير أن التتار علموا بخبرهم وتغلبوا على الجنوية واستولوا على مدفعيتهم وأعلامهم، ثم أعملوا القتل والأسر فى الكثيرين منهم حتى لقد فكر التتار يومذاك فى الاستيلاء على كافا ذاتها ، فزحفوا حتى صاروا على مقربة من أسوارها وحاولوا تسلقها ، لكن الكثيرين منهم لاقوا مصرعهم ، وإذا ذاك أيقن الجنوية أن رجالهم أقدر فى البحر منهم فى البر .

وتحدّ الأرضُ كافا من الناحية المواجهة لفارس والهند، أما بقية النواحى فيحدها بحر « تانا » وبحر أزوف وبحر باكوه [٩٧] (أى بحر قزوين) ، ويجلب إليها القوم كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب واللآلئ والأحجار الكريمة، يضاف إلى هذا كله ما يجلبونه من الأقطار المحيطة بها ومن كافة أرجاء الدنيا من الفراء الذى يباع بأرخص الأسعار، ولا شك فى أنه لو لم يكن الجنوية هناك لما كان لأهل تلك الناحية اتصال ما بنا نظراً لكثرة وجود شعوب مختلفة بها ، مما تتنوع معه أنماط الثياب وضروب الطعام كما تتنوعت أصناف النساء ، ولقد جاءوا لنا فى الخان الذى نزلناه بعذارى صغيرات لقاء كأس من الخمر الذى يندر وجوده بها ندرة بالغة ، وشأن الخمر فى ذلك شأن جميع أنواع الفاكهة والخبز ، إذ لا يتيسر الحصول على كل

هذه الأشياء إلا فى المدينة . ولكن يمارس بيعها هنا جماعة التجار ويشتطون فى ثمنها ، ولهذا السبب كانت السرقات شائعة .

والتتار قوم محاربون كثيرو العمل هم وجيادهم ولا يحتاجون إلا للقليل مما يقيم أودهم ، وهم يقولون إنهم فى انتقالاتهم وحروبهم يحملون نصيبهم من اللحم فيما بين جانب الحصان ومقعد السرج[٩٨] ، وهم لا يطهونه بل يكتفون بهذه العملية ، كما أنهم يشنون الحرب على جيرانهم المسيحيين ويأسرونهم ويبيعونهم فى كافا لا سيما منذ موت « ڤيتولدو » الذى كان يبسط حكمه على ليتوانيا وروسيا ، وهو أخو ملك بولندا وقد مات دون وريث له ، فلما تولى ملك بولنده حُكْم النواحى التى مات عنها أخوه — وهى جد قاصية عن بولندة — كره الناس حكومته وتجزأت البلاد مما أدّى إلى ضياعها ، وإذا كان بعض التتار رقيقاً لنا فمرجع ذلك إلى ما يقع عليهم من السرقة كما أن آباء البعض منهم يبيعونهم حسبما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ومن ثم فإن « كافا » زاخرة بأناس من شتى الشعوب ومختلف الأجناس ، ومن العجب أنها خالية مع هذه الكثرة من الطاعون .

وقد ذهبت — أثناء وجودى بها — لمشاهدة نهر الدون[٩٩] العظيم الذى يزعم الناس أنه النهر الثانى الذى ينبع من الجنة الأرضية ، ويستمد نهرا أروف وقزوين مياههما من مياه « تانيه » الذى يجرى عبر فارس وشبه القارة الهندية ، ويشبه نهر النيل فى أنه تنقل به كثير من أنواع التجارة الواصلة إلى البحر الأسود قرب كافا ، ويوجد على هذا الشاطىء حصنان أحدهما تابع للجنوية وثانيهما للبنادقة حيث يخزنون بهما كثيرا من البضائع .

ويكثر فى هذا النهر السمك الذى يحملونه فى السفن ، كما توجد به كميات ضخمة من السمك الذى نسميه نحن هنا « بالسولو » وهو من أطيب الأنواع: طازجاً كان أو مملحاً ، ويمكن العثور عليه فى قشتالة بل وفى هولندة أيضاً حيث يحمل إليها ، ولقد سلك هذا الطريق سفراء الملك هنرى حينما ذهبوا إلى بلاط تيمورلنك[١٠٠] ، كما أنبأنى الدون « ألفونسو فرناند دى ميا» أن المسافة التى قطعوها من هناك إلى أقصى ناحية بلغوها تقرب من المسافة من كافا إلى قشتالة ، ولكنهم ذهبوا إلى هناك مباشرة وعادوا ورأوا فى طريقهم وفى بلاط تيمورلنك ـ كما يؤكدون ـ كثيراً من الأشياء الغريبة .

ونهر الدون نفسه ذو منظر غريب وكذلك الحال إزاء من يعيشون على ضفتيه إذ يصطادون نوعاً معيناً من السمك يسمونه « ميرونا » يقال إنه شديد الضخامة ، وهم يضعون بيضه فى براميل خشبية ويحملونه إلى شتى أرجاء العالم لا سيما إلى اليونان وتركيا ويسمون ذلك بالكافيار ، وتبدو البيضة أول ما تبدو أشبه بفقاعات الصابون الأسود ، وهم يأخذون هذا البيض وهو لا يزال رطبا ويضغطونه بالمدى كما نصنع نحن الصابون فى بلدنا، ثم يضعون ذلك فى مواقد تكسبه الصلابة ويبدو كبيض السمك ، وهذا الكافيار شديد الملوحة .

* * *

ويلبس النساء وأغلب الرجال الحرير الناتج فى تلك النواحى ويتفننون فى تطريزه تفنناً يشبه تفنن الأندلسيين هنا ، ويرتدى الرجال عباءات اللباد

الرقيق الذى يضغط بعضه إلى بعض وليس به أثر للالتحام ، أما أسلحتهم فهى السيوف القصيرة والقسى والسهام والهراوات .

* * *

ولقد بذلت كل الوسائل التى فى مكنتى للذهاب إلى بلاد التتار ، لكن أجمع القوم كلهم على نصحى بالإقلاع عن ذلك ، إذ ليست المخاطرة مأمونة العواقب إن أنا مضيت إلى مثل هؤلاء القوم الذين لا يقر لهم قرار ، وليس لهم راع من حاكم يدينون له بالطاعة ، ومع ذلك فقد ذهبت لمشاهدة مدينة « كوركان » ، وأردت أن أطالع من هناك سوق الإيلخان المسمى «لوردوباسار» Lordo Basar أى ميدان الوالى ، والذى يسمونه ببلاطه ، وشاهدته بنفسى . وصفته أنه يوجد مكان أشبه بالمدينة الكبيرة يعقدون فيه سوقهم ـ كما يسمونه ـ ويجلس به قاضيهم الأكبر الذى يوكل إليه الفصل بين الناس فيما هم فيه يختصمون ، وعلى الجانب الآخر ـ وهو الأيسر ـ يوجد مكان آخر لنفس الغرض يقف به قاض آخر مثله لحكم الجماعة .

أما بيوتهم فهى مما تحمل معهم ، إذ أن بعضها مصنوع من التيل والبعض الآخر من العصى ، وقد يحدث فى بعض الأحيان ـ حين لا تغل الأراضى شيئاً ـ أن ينتقلوا إلى سواها ، فإذا ما قاموا بذلك عمدوا إلى جميع حاجاتهم فوضعوها فى العربات ورتبوها على نمط يبدو أنهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، وهم لا يأكلون الخبز حيث لا يوجد عندهم منه شىء ، بل يقتصرون فى طعامهم على خليط من الأرز ولبن الجمال ولحم الخيل ، ولا يقربون أى نوع من الخمور لاتباعهم الإسلام ، ويمتد سلطان الإيلخان الأعظم على قطر فسيح الأرجاء ، وإن تكن المدن والبلدان غير معروفة لديهم ، ويعيش التتار دائماً فى العراء .

وإذا لم يجدوا قوماً من النصارى يقاتلونهم حارب بعضهم بعضاً ، ولا يتورعون عن السرقة كلما وجدوا إليها سبيلا دون خوف من إقامة الحد عليهم ولأنهم لا يعدون السرقة جرماً ، وهم ذوو بنية صغيرة فى العادة وإن كانوا مبسوطى الأكتاف ، أما جباههم فعريضة وأما عيونهم فصغيرة ، ويقال إن أشدهم تشويهاً فى الخلقة هم أنبلهم مولداً ، كما يقال أيضاً إنهم إذا اصطدموا بالترك كانت لهم الغلبة عليهم ومن ثم فالترك يهزمون الإغريق ، ويهزم الإغريق التتار .

. . .

ولكن البيزنطيين الآن بأجمعهم لم يعودوا شيئاً يذكر ، لأن القسطنطينية كانت فى ذلك الوقت المكان الوحيد المحصن الذى تركوه والبعض لا زالوا يسمونهم بالسادة ، رغم أن كافة الأمم النصرانية المتناثرة فى أرجاء الدنيا أصبحت فى رق المسلمين وقد أخذ الترك بثأر ترواده ، وكان اليونان خاضعين لهم حتى قبل وصولى وحتى قبل الاستيلاء على القسطنطينية ، وإذا كان الترك لم يستولوا عليها حتى الآن فما ذلك إلا خوفهم من أن تهب شعوب الغرب النصرانية فتمتشق الحسام ضدهم ، لكن يبدو جلياً من إهمال الأمراء والشعوب المسيحية العظيم أن القسطنطينية موشكة على الزوال مما يدل على عبث هذا الخوف ، ولو كان الترك أكثر جرأة مما هم عليه الآن ، ولو أراد الرب — لنجحوا فى كل محاولاتهم بعد أن رأوا تقاعد النصرانية عن بذل أية محاولة للثأر وإصلاح الخطأ ، ومن الواضح فعلا أن المدن تكون أحسن دفاعاً عن نفسها بقوة الرب المعجزة أكثر من الصناعة والقوة المادية .

وكنت شديد الرغبة فى البقاء بهذا الأقليم ولكن صرفنى عن تحقيقها ما طبع عليه أهله من همجية وعدم استساغتى مأكلهم ، ومعظم بلادهم صعبة

الارتياد كما هو الشأن فى بلاد الهند حيث يستحيل السير ، وليس هناك إلا القليل مما يمكن رؤيته فى بقية ربوع الإقليم باستثناء أولئك النصارى الذين قلت عنهم إنهم أشد ما يكونون تعاسة وقد حطمتهم قوة جيرانهم التتار الكريهين ، كما ينقصهم الحاكم الذى يدبر شئونهم ويرعى أمورهم ، مما سوف يجعلهم يستمرون على معاناة هذه الشدة حتى يرق الله عليهم .

ومدينة كافا شديدة البرودة شتاء شدة تتجمد السفن منها فى الميناء ، وقد بلغ أهلها من الهمجية والعيب حداً أحسست معه بالسرور حين انصرفت عن الرغبة فى رؤية شىء أكثر من هذا والعودة إلى بلاد اليونان ، لذلك جمعت حاجاتى ورحلت عن كافا

. . .

الفصل السابع عشر

العودة للقسطنطينية . أيا صوفيا . الخلفات المقدسة
تمثال جستنيان. الهبدروم . تمثال العدالة .
القصر . المكتبة . سوء حال
المدينة

. . .

أبحرنا فى نفس السفينة وتابعنا مسيرنا حتى عدنا إلى طرابيزون التى قلت سابقاً إن إمبراطورها بذل قصارى جهده لاستبقائى لكنه لم ينجح فى مسعاه، ومن ثم سافرنا وأدركنا القسطنطينية التى كانت الأوامر قد صدرت بها بعدم السماح للسفن القادمة من البحر الأبيض بالدخول فى مينائها سواء أكانت قاصدة القسطنطينية أم بيريه مخافة أن تنقل معها الطاعون، ومن ثم بنوا ملجأ على بعد مرحلتين من القسطنطينية تفرغ فيه السفن حمولاتها وتظل باقية به مدى ستين يوماً إلا إذا كانت معدة للنزول للبحر ثانية، ولا شك أن الجماعات الأجنبية تجلب معها كثيراً من الأمراض، وقد رأيت بعين رأسى فى الخان الذى كنت أنزله رجالا هلكوا بالطاعون، لذلك أرسلت واحداً من رجالاتى إلى الطاغية دراجس أستأذنه فى دخول المدينة مُعْلِماً إياه أننى غادرت السفينة أنا وجماعتى، وأننى لم أقم مع الآخرين بل بقيت يومين فى العراء، وإذ ذاك أنفذ أمره بإرسال قارب إلىّ أحسن القوم تجهيزه وإعداده، وجاء عليه نفر من أصدقائى الذين خفّوا لاستقبالى، فبعثت رجالى إلى المكان المخصص

لإقامتهم ، وأما أنا فقد مضيت لتقديم احترامى للطاغية الذى لقينى لقاء كريماً وكذلك الإمبراطورة وحاشيتها ، واستفسرتُ منّى الإمبراطورة عن شأن رحلتى فى البحر الأسود ، وسألت على وجه الخصوص عما إذا كنت قد رأيت أخاها إمبراطور طرابيزون — وكان معها إذ ذاك أخوها الآخر — ، فأنبأتها بما حدث أثناء رؤيتى الإمبراطور ، فشكرنى الاثنان شكراً عميقاً وقالت لى الإمبراطورة : « ما كنتَ بفاعل أكثر من هذا لو كنت أحد أبناء بلدتنا » ، فأجبتها : « سيدتى ، لقد أدّيت ما ينبغى على المسيحى الكريم أداؤه » . ثم استأذنت وانصرفت منكفئاً إلى خانى يحوطنى أشراف المدينة .

* * *

فلما كان اليوم التالى ذهبت إلى الطاغية وسألته إن كان يأذن بإصدار أمره بالسماح لى برؤية كنيسة القديسة صوفيا ومخلفاتها الدينية المقدسة ، فأجابنى أنه سيفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، كما أنبأنى أنه راغب هو ذاته فى الذهاب إليها لسماع القداس ، وفعلَت فعله الإمبراطورة وأخوها إمبراطور طرابيزون الشرعى ، ومن ثم ذهبنا إلى الكنيسة لحضور القداس ، فلما فرغنا منه صدرت الأوامر بالسماح لنا بمشاهدة البيعة البالغة الضخامة ، ويقول الناس فيما يقولون إنها كانت تحتوى أيام ازدهار القسطنطينية على ستة آلاف رجل من رجال الدين ، أما فناؤها الداخلى فغير معتنى به العناية الكافية ، وإن تكن الكنيسة ذاتها فى حال جيدة حتى ليخيل لرائيها أن يد الصناع قد فرغت منها الآن فقط ، وهى مبنية على الطراز الإغريقى ومُلحق بها كثير من الكنائس الصغرى ، وسقفها مصنوع من الرصاص ، أما داخلها فحلىّ بكثير

من الفسيفساء الذى يرتفع من الأرض مسافة رمح طولاً ، وقد بلغت هذه الفسيفساء من الدقة حداً لا تستطيع فرشاة الرسام أن تأتى بأحسن منه منظراً ، وأما أسفلها فأحجار جميلة بلغت الغاية من دقة الصنعة ، وقد خلطت بأنواع الرخام والسماق وحجر اليصب ، وأما أرضها فمن الأحجار الضخمة التى أبدع القوم فى تنسيقها وتجميلها ، وتقوم فى وسط هذه الكنائس الصغرى المصلى الرئيسية العظيمة الاتساع ، وتبلغ من الارتفاع قدراً يصعب معه الاعتقاد باستطاعة البناء التماسك ، وفى هذه المصلى الكبرى صورة من الفسيفساء تمثل الآب فى الوسط ، وتبدو هذه الصورة من أسفل فى حجم الإنسان العادى ، لكن القوم يقولون إن طول القدم وحده يبلغ طول الرمح ، كما تقدر المسافة بين العينين بعدة أشبار كثيرة .

ويوجد بها المذبح الأعظم حيث يستطيع الإنسان أن يتبين كل فنون الهندسة وإبداعها ، كما يقوم أسفل هذه الكنيسة[١٠١] صهريج كبير يقال إنه يسع سفينة ذات ثلاثة آلاف مجداف تسير به ، ويسع ما تحتاجه من ارتفاع الماء وعمقه ، ولست أدرى عما إذا كان مثل هذا القول فى حاجة إلى ما يدعمه وإن كنت لم أر قط فى حياتى صهريجاً أكبر منه ، ولا أعتقد بوجود مثل هذا الصهريج فى مكان آخر .

* * *

ولقد أصدر الطاغية أمره هو ومن معه إلى رجال الدين بإحضار المخلفات الدينية المقدسة ، ولها ثلاثة مفاتيح يحتفظ الطاغية بأحدها ، وأما الثانى فمع بطرك القسطنطينية الذى كان موجوداً حينذاك ، وأما الثالث فمع سادن الكنيسة ، ولقد جاء القسس بملابسهم الدينية فأخرجوا المخلفات المقدسة

وساروا بها فى موكب عظيم ، ومما أخرجوه منها الحربة التى طعن بها جانب سيدنا وهى فى موكب من الآثار الرائعة ، والعباءة التى ليست بها ندبة والتى لا بد أنها كانت بنفسجية فى وقت من الأوقات ثم حال لونها وبهت مع مرور الأيام ، وكذلك أحد المسامير وبعض الشوك الذى كان فى تاج سيدنا، وأشياء أخرى جمة غير هذه مثل خشبة الصليب والعامود الذى رفعوا عليه السيد المسيح، كذلك كانت هناك أشياء عدة من مخلفات سيدتنا العذراء الطوبانية والسفود الذى شوى عليه القديس لورنس ، كما رأيت كثيراً من الآثار المقدسة التى حملتها القديسة هيلانة حين كانت ببيت المقدس ثم عادت بها إلى هنا ، وكلها مخلفات جد موقرة، كما يقوم القوم على حراستها حسن قيام ، وقد مَنَّ الله فلم تقع هذه الأشياء — حين اندحار اليونان — فى أيدى أعداء الرب و إلاّ لأساءوا استعمالها ولتناولوها بغير تبجيل .

ولما غادرنا المكان أبصرنا عند باب الكنيسة عمودا حجريا ضخما أطول من الكنيسة الكبرى ذاتها ، على قمته حصان كبير من النحاس المطلى بالذهب، يعلوه فارس قد دفع أحد ذراعيه وهو يشير بأصبعه إلى تركيا ويمسك باليد الأخرى كرة : رمزاً منه إلى أن الدنيا بأجمعها[١٠٢] فى يده ، وقد حدث ذات يوم أن هبت عاصفة هوجاء أسقطته فتدحرجت الكرة، فكان حجمها — كما يقولون — حجم قِدْرٍ يسع خمسة عشر جالونا، وإن بدت للواقف أسفل التمثال فى قدر البرتقالة ، ومن ثم يمكن للمرء تقدير ارتفاع هذا التمثال ، ويقال أيضاً إن القوم صرفوا ثمانية آلاف دوكات لحفظ الكرة وتثبيت الحصان بالسلاسل حتى لا يسقط إن هبت الريح وكانت عاتية ، أما الفارس فيزعمون أنه يمثل قسطنطين، وأنه كان يشير إلى أن دمار الإغريق سيأتى من تلك الناحية التى دلّ عليها بإصبعه ، وكان الأمر كما أشار .

ولقد أمضينا ذلك اليوم حتى وقت الظهيرة ونحن نتأمل فى إعجاب تلك الكنيسة وفناءها ، ويوجد خارجها ميادين كبيرة حافلة بالدور التى اعتادوا أن يبيعوا فيها الخمر والخبز والسمك لاسيما الأسماك الصدفية التى يُقبل اليونان عليها أكثر من سواها لاعتيادهم أكلها ، كما أنهم يقتصرون فى بعض أوقات صيامهم السنوى على الأسماك الخالية من الدماء وأعنى بها الصدفية ، وقد أقاموا فى هذه النواحى موائد كبيرة من الحجر يجلسون إليها لتناول الطعام ، يستوى فى ذلك الحكام والشعب حيث يجلسون معا جنبا إلى جنب .

* * *

عاد الإمبراطور بعدئذ هو والإمبراطورة وأخوها إلى القصر ، وانصرفت أنا إلى الخان الذى أنزله ، فلما كان اليوم التالى مضيت إلى كنيسة القديسة مريم[١٠٣] المدفون بها جثمان قسطنطين ، ويوجد بهذه الكنيسة صورة سيدتنا العذراء التى رسمها لها القديس لوقا ، كما يوجد على الجانب الآخر صورة السيد المسيح مرفوعا على الصليب وهى محفورة على الحجر ، ويقال إنها تزن بإطارها وقاعدتها عدة قناطير ، وتبلغ من الثقل حدا يعجز معه ستة رجال عن رفعها ، فإذا كان يوم الثلاثاء من كل أسبوع جاء قرابة عشرين رجلا يسدلون ثيابا طويلة من التيل الأحمر تغطى الرأس فتبدو أشبه ما تكون بالعباءات ، وهؤلاء الرجال من أسرات معينة ولا يشغل وظيفتهم سواهم ، ويسير موكب كبير فيمضى الرجال الحمر الثياب واحدا بعد واحد إلى التمثال الذى إذا رضى عن واحد دفعه فيسير كأنما هو لا يزن أكثر من أوقية ، ثم يضعه حامله على كتفه ويمضى الباقون من الكنيسة وهم يرتلون الأناشيد ، ويذهبون إلى أحد الميادين الكبرى حيث يسير حامل الصورة بها من جانب إلى آخر فاعلاً ذلك خمسين

مرة يدور فيها حول الميدان ، فإذا ثبت المرء عينه على الصورة بدت له كأنها مرتفعة عن الأرض وقد تجسّدت تماما ، حتى إذا أنزلها إلى الأرض جاء غيره ورفعها ووضعها على كتفه ، ثم يأتى بعده غيره وهكذا ينقضى اليوم وقد رفعها أربعة منهم أو خمسة .

ويعقد فى ذلك اليوم سوق بالميدان وتحتشد زمر كثيفة من الناس، ويمسك رجال الدين قطعا من القطن المندوف ويمسّون بها الصورة ثم يوزّعون تلك الخرق على من هناك من القوم ، وبعدئذ يعودون بالصورة فى نفس الموكب ويضعونها فى مكانها ، ولم يفتنى يوم من أيام إقامتى بالقسطنطينية حضور هذا العرض لأنه من غير شك إحدى العجائب الكبرى .

* * *

ولقد كانت بالقسطنطينية كنيسة[١٠٤] ليست فى كبر كنيسة أيا صوفيا ولكنها — كما يقول القوم — كانت أكثر منها غناء ، وقد شيدتها القديسة هيلانة رغبة منها فى إظهار بأسها وسلطانها ، وعند مدخلها بعض أقواس كانت شديدة السواد ، ويقال إن الناس الذين وجدوا عقدها كانوا يرتكبون جريمة اللواط ، وقد حدث فى ذات يوم أن سقطت صاعقة من السماء أحرقت الكنيسة ولم ينج قط أحد من أولئك الخاطئين الذين دهمتهم تلك الصاعقة ، وكانت هذه الكنيسة تسمى كنيسة « ڤالاييرنا » ، ويقال اليوم إنها دمرت تدميراً لا يرجى معه ترميمها .

ويوجد هناك دير اسمه دير « بنتيكاترو »[١٠٥] وهو تابع لرهبان إخوان القديس باسيل ، ولا يوجد نظام من الإخوان فى هذه النواحى سوى هذا النظام ، وهذا الدير محلى هو الآخر بالفسيفساء المذهبة ، وبه أوعية الشراب التى ملئت

بالخمر فى عرس قانا الجليل ، كما يوجد به كثير من المخلفات المقدسة الأخرى ، وهو مدفن الأباطرة .

ويوجد على الجانب الآخر من المدينة قبالة البحر وتركيا دير للنساء ذو جدار شاهق الارتفاع ويعرف بدير « القديس ديمترى » ، ويستطيع المرء أن يطالع منه تركيا عبر أضيق أجزاء المضيق ، ويقوم تجاهه على الساحل التركى برج تربط بين جانبيه سلسلة إذا ماشُدّت بينهما حالت دون دخول السفن ، وكان الغرض من وضعها أن تكون موضعا للفرجة ولعدم ضياع المكوس التى تجمع فى تلك الناحية ، ويسمون ذلك بمضيق البسفور الذى يضيق ضيقا شديدا عند أحد جوانبه حتى ليستطيع المرء أن يرى السائر على الشاطئ الآخر ، وزيادة على ذلك فالبحر شديد الضحالة عند الجانب التركى ، لكنه شديد العمق عند الساحل اليونانى بدرجة تتمكن معها السفن — أيا كان حجمها ومهما بلغت ضخامتها — من السير فيه حتى تلامس أسوارا القسطنطينية ملامسة يخيّل معها أن فى قدرة الإنسان أن يقفز من الأسوار إلى السفينة .

* * *

وبالقسطنطينية مكان كبير قد أبدعته يد الإنسان وهو كثير الأروقة والبوابات ، ومن تحته الأقواس التى كان الناس قديماً يستعملونها لمشاهدة الألعاب أيام احتفالاتهم[١٠٦] بعطلاتهم ، ويتوسط هذا المكان ثعبانان قد التفّ كل منهما على الآخر وهما مصنوعان من النحاس المكفتّ ، ويقال إن الخمر كانت تنصب من فم أحدهما والحليب من فم الآخر لكن لا يستطيع أحد ما تذكر هذا الأمر ، ويبدو لى أنه لا ينبغى الاهتمام الكثير بهذه القصة ، على أنه يوجد فى وسط هذا الميدان تمثال رجل مصنوع هو الآخر

من النحاس المكفت، ويقال إنه إذا لم يتفق التجار فيما بينهم على ثمن ما يتبايعونه ذهبوا إلى هذا التمثال الذى يسمونه بتمثال العدالة، فإذا قبض التمثال يده عند مبلغ ما كان هذا هو الثمن الحقيقى للبضاعة الذى ينبغى أن يرتضيه الطرفان المتقاضيان، وحدث أن كان لأحد النبلاء جواد يقدّر بثلثمائة دوكات وأراد أحد أغنياء تلك الناحية شراءه لكن لم يستطع الإثنان الاتفاق على ثمنه، ومن ثم رتبا أمرهما بالشخوص إلى ذلك التمثال للبت فى هذه المسألة، فلما ذهبا إليه أخرج المشترى بضع دوكات ووضعها فى يد التمثال المبسوطة فقبضها عليها إشارة منه إلى أن الحصان لايساوى أكثر من هذا القدر، وحينذاك أخذ المشترى الجواد وتسلم البائع الدوكات، إلا أن الأخير كان يتسعر حنقا فاستل سيفه الأحدب وضرب به يد التمثال ضربة قطعتها، ومن ثم لم يعد يحكم فى شىء أبداً، لكن ما كاد البائع يبلغ داره حتى نفق الجواد وبيع جلده ببضع دوكات، ولست أثق فى هذا الكلام ولكن ثقتى الكبرى بما جاء به الرسل فى الإنجيل.

وفى الناحية الأخرى من هذا الميدان حمام له أبواب يواجه بعضها البعض فإذا رُميت محصنه بتهمة الزنا أمر القضاة بإحضارها إلى ذلك الحمام وحملوها على الدخول من باب والخروج من الباب الآخر، فإذا كانت بريئة مما ألصق بها مرّت خلال الأبواب دون أن يصيبها ما يخدش الحياء، أما إن كانت مخطئة ارتفع ثوبها وقميصها إلى أعلى دون أن ترى هى ذلك وأصبح مكشوفا للعين ما بين وسطها وقدميها.

وفى وسط هذا الميدان[١٠٩] مسلة مصنوعة من حجر واحد على نمط تلك المسلة القائمة فى ردومة حيث يوجد رماد جثة يوليوس قيصر،

وإن لم يكن فى الواقع برماده ، فليس هو بالناعم ولا بالقديم ، ويقال إنها صنعت لجنة قسطنطين .

وحول هذا الميدان وبداخله كثير من المبانى ، ويطلق القوم عليها اسم « الهبدروم » .

• • •

ومدينة القسطنطينية مبنية على شكل مثلث : ثلثاها فى البحر والباقى فى اليابسة ، وهى مسوّرة تسويراً حصيناً جداً بصورة عجيبة تدعو لمشاهدتها ، ويقال إن الترك جاءوا إليها وضيّقوا الخناق عليها ، واستبدت الدهشة بالقائم على المجانيق والرمى به فقال لعظيم الترك : « مولاى إنه لا يمكن الاستيلاء على هذه المدينة بالألغام لأن أسوارها قُدّت من الصلب ، ولن تقع » ، وكان قوله هذا لشدة ارتفاع الأسوار ، ولأنها صنعت من كتل ضخمة من الرخام قد التصق بعضها بالآخر ، إلا أن السلطان التركى ظل دائباً على محاولته هذه ، وإذ ذاك أخبره رجاله أنهم رأوا رجلا ممتطياً جواداً على السور ، فاستقدم إليه يونانياً وقع فى أسره وسأله عن سر تلك المعجزة التى يرونها كل ليلة ، وأعنى بها ذلك الفارس الذى يدور حول الاستحكامات على حصانه وهو فى كامل سلاحه ، فأجابه اليونانى : « مولاى ، يقول الروم إن قسطنطين استعمل فى بنائه هذه الكنيسة كثيراً من الرجال ، وفى ذات يوم بينما كان الجميع منصرفين لتناول غذائهم أمر كبير الفعلة أحد الأطفال بالوقوف هناك وحراسة الآلات ، فأطاعه الطفل ، وإذ ذاك ظهر رجل شديد الجمال على ظهر حصان وقال للطفل لِمَ لا تذهب وتأكل مع الآخرين ؟ فأجابه الصغير « لقد أمرونى يا سيدى بالبقاء هنا لحراسة الآلات » ، إلا أن الفارس أمره بالانصراف

وتناول الطعام ، فأجابه الطفل إنه لا يجرؤ على الانصياع لأمره ، فقال له الفارس « انصرف ولا تخف ، وأنني لأعدك بأنني سأحرس الكنيسة والمدينة حتى تعود » ، فانصرف الطفل ، إلا أن خوفه مما سيحيق به من العقاب حمله على ألا يعود ومن ثم بقي الفارس وفاء بوعده ، ويقول الناس ما كان هذا الفارس إلا ملاكا » .

لكن قد يقال الآن إن الطفل عاد وكفّ الفارس عن الحراسة لأن المدينة قد سقطت واحتُلت ، إلا أن الترك حينذاك انكفأوا راجعين عنها .

ولا بد أن قصر الإمبراطور كان رائعا جدا[١١٠] ، أما الآن فهو والمدينة في وضع يشير إلى الأهوال التي كابدها الأهلون ولازالوا يكابدونها ، ويوجد عند مدخل القصر حنيّة رخامية مفتوحة ، حولها مقاعد من الحجر وكذلك أحجار أشبه بالموائد رفعت على أعمدة أمامها وممتدة على طول الجانبين ، ويوجد هنا كثير من الكتب والمؤلفات والتواريخ القديمة ، وعلى أحد الجانبين أدوات اللهو واللعب لإمداد قصر الإمبراطور بها على الدوام ، أما البيت — من الداخل — فسيئ الترتيب غير بعض نواح ضيقة يعيش فيها الإمبراطور والإمبراطورة وحاشيتهما .

* * *

أما حالة الإمبراطورية فهي من الأبهة بالصورة التي كانت عليها من قبل فما زالت الحفلات القديمة على ما كانت عليه وإن أصبح الإمبراطور أشبه ما يكون بأسقف من غير أسقفية ، وإذا ما خرج للنزهة روعيت جميع التقاليد الملوكية ، وتركب الإمبراطورة على ركاب من السرج فإذا أرادت اعتلاء الجواد أمسك سيدان لها قطعة من القماش الفاخر ورفعا أيديهما وأدارا

لها ظهرها، حتى إذا ألقت برجليها عبر السرج لم تمس اليد قط أى جزء من جسمها .

* * *

واليونان صيادون مهرة بالبزاة والصقور والكلاب ، والقطر ملىء بألعاب الصيد والقنص ، وتكثر به أنواع الطيور والدراج والحجال والأرانب ، وأرضه منبسطة وصالحة للركوب .

ويتناثر سكان المدينة فى جميع أرجائها ، وهى مقسمة إلى أحياء أكثرها اكتظاظا بالسكان ما كان واقعاً على شاطىء البحر ، وليس ثم أثر للجدة على ملابس الأهالى ، بل إنها أدلّ ما تكون على التعاسة والفقر، وأفصح ما تترجم عن شظف الحياة التى يحيونها، وإن لم يكونوا قد بلغوا من الشقاء ما يستحقونه لأنهم قوم أشرار غارقون فى الخطيئة إلى الأذقان .

ومن عاداتهم — إذا مات لهم ميت — ألا يفتحوا باب دارهم طوال تلك السنة إلا للضرورة القصوى ، ثم يتجولون على الدوام فى المدينة مولولين كما لو كانوا يندبون ، وبذلك تفاءلوا منذ زمن بعيد بالشر الذى حاق بهم .

وتوجد الترسانة على أحد جانبى المدينة قرب البحر ولابد أنها كانت من قبل رائعة جداً بل لا تزال حتى الآن كافية لاستيعاب السفن ، أما فى الناحية التى تطل على بيريه فقد أقاموا رصيفاً تشدّ إليه السفن ، وتبلغه المياه الملحة حيث تلتقى بنهر يصب فى البحر فى هذا المكان ، وتقدر المسافة الفاصلة بين هذه البقعة وبيريه بضعف رمية حجر ، فإذا جاءت السفن إلى بيريه للمتاجرة مع الجنوبية كان عليها أن تبدأ بتحية القسطنطينية ودفع الضريبة لها ، وتعقد بالقسطنطينية المحاكم الجنائية الخاصة ببيريه وجميع القطر ، ويزدحم

هـذان الميناءان على الدوام بالسفن التى تحمل البضائع الكثيرة ما بين صادرة وواردة .

وقد حدث فى أحد الأيام أن بعث القبطان القشتالى فى طلبى إذ لاقى أحد بحارته القتل على يد يونانى أراد سرقة السفينة ، فتوجهت إليه وأخذنا الجانى وبحارته إلى الإمبراطور حتى يقيم الحد على القاتل ، وعلى الرغم من كراهية اليونان لإنزال العقاب بهذا المجرم إلا أن الإمبراطور راعى خاطرى، وقد حذرته من أن يعمد رجالنا للثأر لصاحبهم فتقع جريرته على الأبرياء ، ومن ثم أرسل فى الحال فى طلب الجلاد وأمر بقطع يد الجانى أمام القصر وسمل عينيه ، فسألت عما يحول بينهم وبين قتله فأجابونى بأن ليس فى قدرة الإمبراطور الحكم بالإعدام ، وأنبأونى أيضاً أنه لما استولى شرلمان على بيت المقدس عمد كثير من رجالاته — فى طريق عودتهم — إلى السفر عبر بلاد اليونان ففتك أهلها بطائفة كبيرة منهم ، فلما علم البقية بما جرى مضوا عبر بلاد التتار وروسيا حيث توجد جماعات مسيحية ومضوا من هناك إلى المجر وألمانيا ، ويقال إن شدة جمال روس هذه النواحى يرجع إلى استقرار كثير من الفرنسيين بها وتزاوجهم مع أهلها ، ثم زحف الإمبراطور شرلمان على القسطنطينية وشن حرباً ضروساً على إمبراطور اليونان ، وانتهى الأمر أخيراً بالصلح بينهما ، وآلى الإمبراطور على نفسه — تكفيراً عن قتل هؤلاء الرجال — أن يظل صائماً طول أيام الصوم الكبير الذى يقال إنهم يخالفوننا فى مراعاته (لأن اليونان لا يستطيعون التوفيق بينه وبين ضمائرهم فى أكل اللحم بالدم بل يقتصرون على الأسماك الصدفية) ، وزيادة على ذلك فإنه لا يمكن الحكم بالإعدام على كائن من كان مهما عظمت جريمته ، بل يكتفى فى العقاب

بقطع الأيدى وسمل العيون ، ومن ثم تحفل بلاد اليونان بالكثيرين من مبتورى الأيدى والعميان .

وهكذا كانت الطريقة التى أقرّ بها الطاغية العدالة ورضينا نحن بما فعل .

وحدث فى أثناء إقامتى بالمدينة أن زحف السلطان التركى إلى مكان على البحر الأسود حتى أصبح على مقربة من القسطنطينية ، فصوّر الخيال للطاغية ولأهل بيريه أن الأتراك قادمون لاحتلال البلد فتهيئوا لقتالهم وأعدوا سلاحهم[١١١] ، لكن السلطان التركى مرّ مصاقباً للأسوار ، وجرت فى ذلك اليوم بعض مناوشات ، ثم اجتاز الناحية وفى صحبته جمع كثيف من الناس ، ولقد كان من حظى الطيب أن رأيته فى الميدان وشاهدت أسلوبه فى الخروج إلى القتال كما شاهدت سلاحه وكراعه وجياده وعتاده ، ومن رأيى أن الترك لا يستطيعون التغلب على جيوش الغرب إن هم التحموا بها ، وليس ذلك لضعف قوتهم بل لما ينقصهم من كثير من ضروريات الحرب .

وحدث فى هذا اليوم أن حمل القوم هدية كبيرة من القسطنطينية إلى الأتراك حيث يقيمون ، وكنت أظن أنهم سوف يبقون حيث هم ويحاصرون المدينة ولكنهم تابعوا زحفهم إلى البحر الأسود لقتال الجماعة التى كانت قد ثارت ضدّهم وتمردت عليهم ، وكان ما تمنيته إذ لم يكن لدينا إلا القليل من الرجال ، وللمقاومة أمراً بالغ الصعوبة والمشقة ، ومن ثم كان من أحسن الأمور وقعا على النفس وإدخال المسرة عليها رؤية مثل هذا الجيش العرمرم وهو يرحل دون أن ينزل ضرراً ما بالبلد أو يرهقه من أمره نصبا ، وكان فضل الله عظيما أن لم يكن أبناء وطنى قريبين من مسرح هذه الأحداث ، إذ لا توجد هنا قلاع ولا سفن تحميهم ، وما من سبيل للحماية سوى القتال .

الفصل الثامن عشر

بروسة . بيريه . الرحيل عن القسطنطينية . تافور ينقذ
بعض الرقيق النصارى . ميتلين . سالونيكا .
العاصفة . راجوزا . أنكونا . سبالاتو .
الوحش البحرى

. . .

وفى اليوم التالى سألت جنويا من أصدقائى له دار فى إحدى المدن التركية التى يسمونها بروسة[١١٢] الواقعة عند الطرف الأقصى من خليج نيقوميديا[١١٣] أن يأخذنى معه فاستجاب لسؤالى وأخذنى فى صحبته حيث أبحرنا ، ورأيت المدينة وهى غير مسورة وإن بزّت جميع مدن تركيا من حيث الضخامة والجمال ، ويبلغ سكانها قرابة أربع آلاف نسمة ، ولولا الخليج الذى يسلكه التجار فى اتصالهم بالمدينة ويجلبون إليها برّا كثيرا من الأنباء من فارس لما بلغت هذه الدرجة من الأهمية ، وهى واقعة قرب اليونان ، وقد عنى الترك بها منذ تملكّهم إياها لأنها أحد معابرهم من اليونان إلى بلادهم ، وقد أقاموا بها مخازن كبيرة لأنهم يستعملون المدينة كمحطة بحرية فى الطريق ، ولا أعتقد أنه يوجد فى تركيا بأجمعها اليوم مثل هذا المكان فى كبره وازدحامه بالسكان وثرائه ، وقد عدت منها إلى القسطنطينية وبيريه التى خرجت منها أولا .

وسكان بيريه[١١٤] يقربون من ألفى نسمة ، وهى حصينة التسوير متينة الاستحكامات ، وخندقها قوى ، أما كنائسها وأديرتها فرائعة ، كما يوجد بها

دار للتبادل النقدى جميلة حسنة البناء جيدة التسوير ، ومبانيها شاهقة فاتنة كمبانى جنوه ، وجمهور عامتها من اليونان وإن كانوا تحت حكم الجنوية الذين يتولون جميع الوظائف ، كما أنها مركز النشاط التجارى للبضائع الواردة من البحر الأسود وكذلك من الغرب ومن سوريا ومصر ، ويمتاز جميع تجارها بالثراء الفاحش ، وكانت بيرًا تسمى من قبل بغلطه .

* * *

بقيت بعد عودتى من البحر الأسود مدة شهرين فى القسطنطينية وبيريه ، ثم أبحرت فى مركب من مراكب « أنكونا » مستصحبا معى عبيدى والحوائج الأخرى التى اشتريتها فى كافا ، وركبنا البحر سالكين الطريق الذى جئنا منه مخلّفين القسطنطينية وراءنا ، واجتزنا « أرجلى » و « سيسلبريا » و «مرمرة» و «غالبيولى» ، وفى أثناء عبورنا مضيق البسفور قرب الدردنيل ـ الذى هو مدخل ميناء طروادة ـ أبصرنا جماعة من الناس يشيرون إلينا إشارات خاصة يدعوننا بها للقدوم إلى الشاطىء ، فقال الربان إنه عرف فيهم الأسرى النصارى الذين يشتهون الهروب فى سفينتنا وأنه لا ينبغى علينا الاكتراث بهم ، إلا أننى توسلت إليه أن يُنزل قاربا إلى البحر ليمضى لإنقاذهم ، ذاكراً له أننا إذا تركناهم لما هم فيه فلا عجب إن رمانا الله بنكد الطالع ، وسرعان ما استجاب لى الربان وأنزل زورقا ركبته أنا وأربعة آخرون ورحنا نجدّف ميممين الشاطىء ، فلما أخذنا فى الاقتراب منه ظهر جماعة من الترك ، وإذ رأوا أننا قدمنا لأخذ الأسرى شرعوا فى الهجوم علينا ، ولما كان ربان السفينة على استعداد لكل شىء فقد أنفذ قاربا آخر به عشرون رجلا مزودين بالسهام والأسلحة النارية ، فجاء القارب إلى الشاطىء وتمّت لنا الغلبة على الترك وانكفأنا سالمين بإخواننا

النصارى ، ولقد أصبت بجروح فى قدمى من سهم رميت به، إلا أنه سرعان ما اندمل ونجحنا فى مهمتنا إذا لم نفقد شيئا لأننا كنا فى خدمة الرب .

* * *

بحرنا فى هذا اليوم تاركين مضيق رومانيا، وأرسينيا فى ميناء «تينيدوس» المواجهة لطروادة ، فلما كانت الغداة رحلنا من هناك وانثنينا إلى رأس «سانت ماريا» ، فجئنا إلى جزيرة مالطة التابعة للجنوية حيث وجدت إمبراطور طرابيزون الذى كان قد فر من أخيه متزوجا ـ كما قلت ـ ابنة أحد الحكام بغية الحصول على مساعدته له ـ وكان الإمبراطور يجمع السفن لإرسالها إلى طرابيزون لقتال أخيه ، فراح القوم يستفسرون منى عن وضع الأمور فى طرابيزون كما رأيتها ، فأنبأتهم بالحقيقة ، وأن السلطان التركى لو وقف ضدهم لما استطاعوا القيام بعمل شىء ما يكون فى صالحهم وينزل الضرر بأعدائهم .

ويوجد بهذه الجزيرة كثير من حجر الشب فأوسقنا سفينتنا منه ، حتى إذا فرغنا من ذلك أبحرنا واتجهنا إلى بلاد اليونان سالكين طريق سالونيكا ، وتقوم فى هـــذا البحر جزيرة عظيمة جداً يسمونها جزيرة « مونت سانتو » كان السلطان التركى ـ أبو السلطان الحالى ـ قد حاول الاستيلاء عليها لولا أن الطاعون نزل بجنده ففتك بهم فاضطر كارها لأن يصدر أمره بترميم جميع ما خربه وتزويد من يعيشون فيها بالمؤنة ، هـذا المـكان مرتب على الصورة التالية ، ذلك أنه يوجد دير عند سفح الجبل وآخر فى منتصفه وثالث عند قمته ، ولا يسمح بالانخراط فيه إلا لمن كان شريف المولد أو فارساً أو أن يـكون كهلا غير قادر أو ذا عاهة ،

فيأتى هؤلاء إلى تلك البقعة ويقيمون فى الدير الأول ، ويأخذ الرهبان فى مراقبتهم عن قرب ومطالعة أسلوب معيشتهم ، فإن سلكوا مسلكا كريما انتخبوا منهم من يبعثونهم إلى الدير الثانى الواقع فى الوسط حيث تطبق نفس القواعد ، فإذا أقرّ الرهبان تصرفاتهم بعثوا بهم مرة أخرى إلى الدير الثالث الأخير ، ويقولون إن من يعيشون هناك مشهورون بالقداسة ؛ كما أن المكان مزار كبير للحجاج ويتلقى كثيراً من الصدقات ، إلا أن زائرى هذا المكان لا يذهبون إلا للدير الأول ، وجميع الرهبان من اليونان من أتباع القديس باسيل ، وهم لا يقتصرون فى الامتناع عن اللحم فحسب بل لا يتناولون أيضاً كل سمك فيه دم .

رحلنا من هناك جاعلين خليج سالونيكا على يميننا ، وتوجد عند نهاية الخليج المدينة التى ضاعت من البنادقة منذ فترة قصيرة وكان ضياعها على الصورة التالية [١١٥] ، ذلك أن الترك قدموا لمهاجمتها بالرجال براً وبالسفن بحراً ، فأعدّ البنادقة أسطولا ضخما ، إلا أنه يقال إنهم تشاوروا فيما بينهم وانعقد الإجماع على التخلّى عن سالونيكا لسببين أولهما : أنه لم يكن فى استطاعتهم مقاومة قوة الترك براً ، وثانيهما : ما يتكبدونه من تكاليف الدفاع عن هذا المكان ، أضف إلى هذا أن كسبهم منه ضئيل لعدم صلاحية الميناء صلاحية تامة للتجارة ، وهكذا آثر البنادقة وسواهم من الإيطاليين الكسب على الشرف ، غير أنهم خرجو بأسطولهم لصد الترك الذين حطموه ولم ينج منهم أحد ، وبذلك ضاعت مدينة سالونيكا .

ثم جئنا بعدئذ إلى جزيرة « نيجرو بونتو » ، الواقعة فى بحر الأرخبيل ويحكمها البنادقة ، ويقال إنه كان فى الأزمنة القديمة جسر يصل بينها وبين

البلاد الأصلية ، ويقطن اليونان الجزيرة التى تزخر بالبساتين الكثيرة والفاكهة ، ومن هناك أبحرنا فى الأرخبيل مارين بكثير من الجزر الآهلة بالسكان وغيرها من المدن المقفرة منهم ، حتى إذا كان يوم عيد العنصرة استرحنا فى جزيرة يدعونها « أوروس » .

أبحرنا فى أيام العيد وكانت الريح رخاء فى بحر الأرخبيل ، إلا أنه هبت عند منتصف الليل عاصفة هوجاء ثار لها البحر ثورة يئسنا فيها جميعاً من النجاة ، وكان هناك كثير من النذور التى راح ينذرها حجاج الشرق والغرب إن قُيِّضَتْ لهم النجاة ، وسرعان ما امتلأت سفينتنا بالطيور التى راحت تحط على أكتافنا ، وقد دفعتها العاصفة للطيران فراحت تنشد فى السفينة ملجأ لها من الغرق ، وكان الهدهد أكثرها ، ويقال إنه قلما يحدث مثل هذا الأمر إلا فى أثناء العواصف العاتية ، على أننا بلغنا جزيرة « كريت » عند صلاة الغروب بأشرعة ممزقة وقد دفعتنا الريح إلى ذلك القسم من الجزيرة المسمى « بكناى » ، ورحنا نسير أمام العاصفة حتى بلغنا الساحل فأرسينا عنده ، وبقينا يومنا وليلتنا هذه وكذلك اليوم التالى حتى العصر ، وكان هناك راهب رآنا فى اليوم السابق ونحن نسير بصوار جرداء من الأشرعة ، وراقب السفينة وهى ترسو عند الشاطىء دون أن يلمح خيال أحد يبلغ الأرض ولم ير أية حركة فى المركب ، ومن ثم ركب زورقه وجاء إلينا فوجدنا نائمين ، وكان العجب قد استبدّ به من قسوة العاصفة فى جنح الليل وخشى أن تحمل الريح كوخه وتدمره ، فلما رآنا قادمين مع الفجر شكر الرب على نجاتنا ، أما الربان فقد بقى فى السفينة يصلح أشرعتها ، على حين مضيت أنا ورجالى إلى الشاطئ فى صحبة الناسك لرؤية قَلاَّيته ، وحملنا معنا ما كان لدينا من الطعام

بالسفينة لا سيما ذلك النوع من السمك الذى يأكله الرهبان اليونان ، ولبثنا فى صحبته ثلاثة أيام فى غاية الفرح ، وبعث هو بعضا مما عنده من القوت إلى ربان السفينة ، أما أنا فقد لقيت من الأهوال ما لو كنت صادفته وأنا فى البر لما فكرت قط فى أن أركب البحر ثانية .

بيد أننا أبحرنا مرة أخرى فى اليوم الرابع وجئنا إلى « مودون »، وبقينا خارجها فترة يومين نظرا لأنها غير صحية، ثم رحلنا مصاقبين لساحل بلاد المورة حتى أدركنا خليج « باتراس » مجتازين جزيرة « كورنو » التى وصفتها[116] من قبل ، ثم دخلنا خليج البندقية جاعلين إيطاليا على يسارنا وساحل ألبانيا على يميننا ، وأبصرنا كثيرا من المدن والقلاع القوية على ساحل البحر، وطالعتنا مدينة اسمها « فالونا » كان الترك قد استولوا عليها وأخضعوها لحكمهم .

وتتناثر الجزر فى شتى أرجاء البحر هنا ، وبعضها آهل بالسكان والبعض الآخر مقفر غير مسكون ، وحين بلغنا ساحل « إسكلافونيا » جئنا إلى مدينة اسمها « راجوزا » تابعة لإمبراطور ألمانيا ، ويسمى إقليم إسكلافونيا بأقليم « دلماشيا » ، وتكثر فى هذه النواحى أجل أنواع الصقور وذلك لأن الأقليم جبلى مرتفع ، كما أن أهله أطول من كل قوم رأيتهم فى أى مكان آخر ، ويقال إن فى دلماشيا وألبانيا كثيراً من مناجم الفضة .

ومدينة « راجوزا » شديدة الحصانة ، وهى تقع على نجد مرتفع يشرف على البحر وحافلة جدا بشتى أنواع البضائع ، كما أنها تواجه إيطاليا ويستطيع المرء أن يرى من الجانب الآخر « أنكونا » وضواحيها ، وقد أقمنا هنا يوم رحلنا بعده إلى « أنكونا » لأن سفينتنا كانت مرتبطة بالمضىّ إلى هناك لتفريغ بعض حمولتها ثم الذهاب إلى البندقية ، وصادفنا فى هذه الليلة عاصفة

قوية، فلما كان وقت غروب اليوم التالى بلغنا أنكونا وأرسينا عندها ثم نزلنا إلى الشاطىء .

أقمنا بأنكونا أربعة أيام ، والمدينة بجميع نواحيها من أملاك الكنيسة ، وهى محكمة التحصين منيعة الأسوار ، وجميع دورها مخروطية البناء شاهقة الارتفاع على نمط دور جنوة ، ويزعم الناس فيما يزعمون أن بانى جنوة وأنكونا واحد ، ويتجلّى بأوضح صورة من مبانيها أنها موغلة فى القدم ، وهى مركز حىّ للتجارة ، وتبنى بها كثير من السفن التى تشق البحار بما تحمله من البضائع ، كما أن أهلها يحترفون فى السير التجارة أكثر من سواها ، والأقليم زاخر بالحبوب والخمور والفاكهة وبكل ما تتطلّبه الحياة ، وكان قد أشيع وقتذاك أن الكونت فرانشسكو — الذى كان قد غزا جزءا كبيرا من الناحية — راغب فى الاستيلاء على أنكونا ، فأخذ أهلها فى الاستعداد للدفاع عنها ، وعلمت بعدئذ أنه قام بهذه المحاولة لكنه عجز عن دخول المدينة .

أبحرنا بعد أربعة أيام واقتربنا من دلماشيا ، والساحل غاص جدا بالبحارة ، ومرجع ذلك أنه مرفأ أمين رائع لا يوجد له أى ضريب على الجانب الإيطالى ، وإذ سرنا على طول ساحل دلماشيا — ومررنا بكثير من الجزائر المأهولة والمقفرة كما هو الحال فى جزء الأرخبيل رغم أنها فى حجمها وتعداد سكانها ليست كبيرة — أقول إذ سرنا على طول هذا الساحل بلغنا مدينة إسمها « سبالاتو » وتقع هى الأخرى فى دلماشيا ، وقد ولد فى هذه المدينة القديس « جيروم » والقديس « كريستوفر » . ويوجد هنا لسان من البحر يمر بقرية صغيرة يقال إن القديس كريستوفر حمل بها الفقراء الذين عجزوا عن دفع أجرة القوارب ، ولا تزال حتى اليوم آثار دارَىْ هذين القديسين ماثلة .

وطالما حدث فى كثير من المرات أن اختفت النسوة اللاتى يغسلن ثيابهن دون أن يعرف أحد ما السبب، وكان اختفاؤهن فى الخليج الذى يمتد داخل الأرض، وقد حدث ذات يوم ـ والنساء كعادتهن فى الماء ـ أن ظهر وحش نصفه الأسفل على شكل سمكة ونصفه الأعلى آدمى وله أجنحة كالخفاش، وهاجم إحدى النساء وأمسكها ثم غاص بها تحت الماء، فلما سمع النسوة الأخريات صراخها الذى ترامى أيضاً إلى سمع بعض الرجال الموجودين هناك هبوا إلى الناحية التى كان العراك ناشباً فيها بين الوحش والمرأة، لكنه لم يدعها تفلت من بين يديه رغم مهاجمتهم إياه، وقد أصابوه بجرح وسحبوه إلى الشاطىء حياً، وبقى على هذه الحال ثلاث ساعات أو أكثر حتى مات، ومن ثم لم يعد شك فى أن النسوة اللاتى اختفين من قبل قد وقعن فريسة لهذا الوحش الذى أخذه القوم وبقروا بطنه وحشوه ملحاً وبعثوا به إلى مجلس البندقية كى يرسلوه إلى البابا يوجين، ورسمت له صورة حملت إلى قشتالة وإلى كافة أرجاء الدنيا، ولم أر الوحش لكنهم أنبأونى بنبئه ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذلك الامر.

وهـــذا المكان أسقفية، ولقد رأيت فى بلاط البابا أسقفها وهو من من أهل فرنسا.

الفصل التاسع عشر

البندقية . الحج الجديد . الاستيلاء على مضائع
طافور ثم ردها إليه . حفل عرس البحر .
كنز القديس مرقس . الإمبراطور
بربروسة والبابا .

. . .

غادرنا سبولاتو وبلغنا بلدة تدعى «بارنزو» التى تقع عند رأس دلماشيا قبالة البندقية ، ويحكمها سيد إقطاعى ، ويتحتم على السفن الراغبة فى الوصول إلى البندقية أن تلقى مراسيها بها أولا فى انتظار الفرصة لدخول المضايق الواقعة بين القلعتين ، ويتوفر الملجأ الطيب والمرسى الواقع على طول ذلك الشاطىء ، فلما كان اليوم الثانى أبحرنا إلى ميناء البندقية وألفينا كثيراً من السفن الراسية خارجها فى انتظار الإقلاع ، ومن بينها غراب لبيت المقدس دلت عليه بيارقه ، فلما سألنا القوم عن هذا الاستعداد فى كل شىء ذكروا لنا أن اليوم يوم الصعود وأنه مفروض على كل شخص — بعد سماع القداس وتناول البركة — أن يمضى إلى سفينته استعداداً للرحيل ، وكنت فى مثل هذا اليوم وفى مثل تلك الساعة منذ عامين قد أبحرت قاصداً بيت المقدس ، [١١٧] وسألت عما إذا كان هناك بين الحجاج قشتاليون ، فأنبأونى بأن « جوتيير كيسادا » و« بيرو بارڤادى كامبوس » ذاهبان إلى بيت المقدس وأنهما الآن فى المدينة لمشاهدة الاحتفالات التى كانت قائمة على قدم وساق ، فدخلنا الميناء ونزلنا أمام كنيسة «سنت مارك» (القديس مرقص) ، واتجهنا فى الحال إليها لسماع

القداس حيث ألفينا حشداً كثيفاً من الناس احتفاءً بما أصابه البنادقة يوم الصعود من نصر عظيم على الإمبراطور بربروسة ، كما سأروى خبره فيما بعد .

وهنا وجدت «جوتيير كيسادا» و«بيرو بارقا» و « ولوس بانيجاس » و « خوان دى أنجلو » أخا « فرناندو دى أنجلو » وسواهم من القشتاليين الذين سررت بهم كثيراً، ولم يكونوا دونى سروراً بتلاقيهم إياى ، ولما كانوا ماضين إلى بيت المقدس فقد كانوا ملمّين بأحسن الوسائل فى الرحلة، وأنبأتهم أنا من جانبى بما يتحتم عليهم أن يفعلوه وكم تكلفهم هذه السفرة ، لكن يبدو الى أنهم انشقوا فيما بينهم على أنفسهم وسافروا فى مواكب متفرقة ، فبذلت غاية جهدى للتوفيق بينهم فلم أفلح فى مسعاى ، وهكذا غادر بعضهم المكان إلى المركب الشراعى ، ومضى الآخرون إلى المركب الذى خصص للفقراء ، وتغدينا معاً ذلك اليوم ، وبعد انقضاء الاحتفال وتناول الغفران التام ضد الخطيئة والعقاب وبعد البركة رافقتهم إلى البحر وشاهدتهم وهم يرحلون مبكرين .

ثم عدت مع بقية القشتاليين إلى المدينة فوجدت القوم قد استولوا على ما كنت قد جلبته فى السفينة من بضائع ومن بينها العبيد وغيرهم بحجة أنه لا يتأتى لأحد ما أن يجلب تجارة من البحر الأسود إلا إذا كان من أبناء البندقية، وأنى لم أنبىء السلطات الجركية بما معى ؛ ولما كان هذا اليوم يوم عيد ضخم فقد احتشد الناس فى قصر القديس مرقص واصطفوا عل أبدع صورة ؛ ثم دخل القصر سبعة فرسان أو ثمانية يرتدون شارة الإمبراطور « سجسمند» التى أحملها؛ فذهبت فى التوّ إليهم وشكوت لهم ما وقع بى؛ وإذ ذاك اصطحبونى إلى الدوج وهو حاكم البلد ؛ وذهب إلى هناك أيضاً القشتاليون

الذين كانوا موجودين ؛ وتحدثت إلى الدوج - وكان فى مجلسه - ورفعت إليه شكواى ، فسألنى أعضاء المجلس أن أتنيب برهة حتى يناقشوا الأمر فيما بينهم ، وسرعان ما نادونى قائلين :

« أيها السيد الفارس ؛ حقيقة أن عندنا قانونا يحرّم على أى شخص من غير أهل البندقية أن يجلب معه إلى هذه المدينة شيئاً ما من البحر الأسود أو ساحل الشام ؛ فإن فعل ذلك صودر كما صودرت بضاعتك وفق هذا القانون الذى يجب أن يطبق على التجار ؛ ومهمتك تحول بينك وبين المتاجرة ؛ أضف إلى هذا أن ما تحمله معك إنما هو لنفسك ومن ثم فإن القانون لا ينطبق عليك ، وسترد إليك بضاعتك ، وإذا كان فى القانون ما هو غير ذلك فإن المجلس سيتفضل بدفعه ؛ كذلك فإننا سنؤدى لك جميلاً أكبر نظراً للأمة النبيلة التى تنتمى إليها ، ذلك أننا لن نكتفى برد مالك إليك بل سنمنحك اجازة لنقل بضاعتك أنّى شئت ، وهذا امتياز لم تجر العادة بمنحه لأى أحد ما إذ يستحيل إخراج شىء من البندقية يكون قد دخلها » .

فاستأذنت بعدئذ فى الانصراف من الدوج الذى قدم إلىّ أعطيات طيبة ، وانصرف معى أولئك السادة الذين صحبونى ولم يتركونى حتى بلغت مقامى ، كما بعثوا إلىّ فى ذات اليوم نبيذاً وحلوى ووسائل مسلية ، وكانوا كلما قابلونى بالغوا فى الترحاب بى كما لو كانوا من عشيرتى الأقربين .

وفى يوم الصعود أقاموا احتفالات كبرى وعرضوا جميع مدخراتهم ومن بينها كنوز القديس مرقص ، وعرضوا المجوهرات فى الشوارع عند أبواب المنازل ، وأخرج الصيارفة للفرجة ما لديهم من ذهب وفضة ، وطلع الرجال والنساء فى أبهى ما لديهم وتزيّنوا بغالى الجواهر .

ويذهب الدوج فى هذا اليوم فى أبهة بابوية وزينة إمبراطورية، وهذا حق له فى هذا اليوم كما يقولون ، وتجرى الاحتفالات الضخمة ، حتى إذا فرغ من سماع القداس ذهب مع جميع رجال الدين إلى البحر وركبوا السفن ؛ فيركب الدوج واللوردات فى سفينة تدعى « بوتشنتورو » ، وهى أكبر ثلاث مرات من الغراب وضعف حجم المركب ويجلس المجدفون فى قاعها لا يراهم أحد ، وتغطى السفينة كلها بقماش من الذهب وسطحها بالسجاد الجميل ؛ فإذا وفد أغراب أو رجال من علية القوم أخذوهم بها أيضاً وهم يحملون الصلبان والرايات الصغيرة المثلثة التى أسرف القوم فى تطعيمها بالذهب ؛ ويصبح البحر غاصاً بالسفن حتى قَلَّ أن ترى العين ماءه ، فيبحرون ويمضون إلى مدخل الميناء حيث تقوم القلعتان ، وهناك يقف القسيس يلقى خطبة خاصة ويمنح الناس البركة ويرشهم بالماء المقدس، ويسحب الدوج خاتماً من إصبعه ويقذف به إلى البحر ، وهذا — كما يقولون — تقليد قديم لزواج البحر بالأرض لفث غضبه لقيام مدينتهم عليه وتوقف جميع ما يملكون عليه .

ويفرغ القوم من ذلك قبل ساعة من قيام جميع السفن، وبعد نوالهم البركة ينشرون أشرعتهم ويمضون فى سبيلهم وهو أمر فريد يستحق المشاهدة . ثم يعود الدوج مع جميع كبار رجالته إلى ساحل رملى بين القلعتين حيث يقوم دير معروف للإخوان ، وهناك يغادرون السفن ويحتفلون جميعاً مع الدوج : كل ذلك على نفقته الخاصة ، حتى إذا كان المساء عادوا إلى المدينة .

وفى هذا اليوم ذهبت لمشاهدة ثروة القديس مرقص ، وذهب معى فئة خاصة من أهل المدينة حتى أشاهد كل شىء رغم أن كل شىء كان معروضاً للعيان ، وهناك أبصرت مقادير هائلة لا سيما من اللؤلؤ والأحجار الكريمة

وكميات من الياقوت الأحمر والماس والياقوت من بينها ثلاثة أحجار فى ثلاثة شمعدانات ولكنها غير مثبتة حتى يتمكن المرء من تناولها بيده ورؤيتها .

وهناك تيجان الأساقفة محلة باللؤلؤ والأحجار الكريمة والفضة ، وكذلك صدارى الكهنة مغطاة هى الأخرى بالجوهرات واللآلىء وكميات كبيرة من الذهب والفضة ، ويقولون أيضاً إنه توجد قطعة نادرة من العقيق الأحمر ، والواقع أنه يوجد معرض أكبر من الثروات لم أره قط ، كما يوجد رف خلف المذبح قد غطته اللآلىء والأحجار الكريمة ولكننى لا أستطيع الإسهاب فى الكتابة عنها لأن ذلك يستنفد جزءاً كبيراً .

ويقول البنادقة إن الإمبراطور بربروسة حارب البابا كى يستولى على جميع أملاك الكنيسة مما حمل البابا على الفرار والالتجاء إلى البندقية حيث بقى فترة طويلة فى أحد الأديرة دون أن يكشف أحد أمره[١١٨] ، حتى تأتى لواحد أن يعرف السر ويراه ، فأفضى بالنبأ إلى الدوج الذى ذهب مع رجال مجلسه للبحث عن البابا فى هذا الدير ولكنه لم يستطع العثور عليه ، فأمروا بإحضار جميع الإخوان وأنزلوهم إلى المطبخ ، وإذ ذاك وجدوا البابا لأنه كان الطاهى فأخذوه وحملوه معهم وألبسوه الملبس الخاص به وأنزلوه فى قصر الضيافة وأحاطوه بالتوقير ، وكتبوا أيضاً إلى رومة وإلى جميع نواحى إيطاليا ذاكرين أن البابا عندهم ، وأفضوا بالخبر إلى الإمبراطور متوسلين إليه أن يرد إلى الكنيسة أملاكها حتى يعود البابا إلى رومة موقراً ، فاستشاط الإمبراطور غيظاً من البابا والبنادقة ، وجهز أسطولا قويا بالسلاح قصد به البندقية حتى شارف الجصنين حيث كان للبنادقة أسطول ضخم هناك

أخرجوه لصده ، فقاتلوه وأنزلوا به الهزيمة حتى ألزموه الفرار ، وأخذوا ولده أسيرا عندهم .

والتمس ابن الإمبراطور — حين وضعوه فى السجن — من البابا إطلاق سراحه ، قاطعا العهد على نفسه له بأنه سيحاول إعادة أبيه إلى الطاعة ، فإن فشل فى محاولته عاد إلى الحبس .

فاستجاب البابا بعد استشارة المجلس ، وبعث به فى عراب إلى مدينة «أنكونا» حيث كان أبوه ، فتكلم معه وتوسل إليه أن يعود لسابق طاعته للبابا والخضوع له وأن يرد إليه ما كان له من قبل ، فلما باءت محاولته — فى إقناعه — بالفشل عاد إلى حبسه .

بيد أنه لم تكد تنقضى أيام قلائل على هذا الأمر حتى أرسل الإمبراطور مبديا رغبته فى السماح لابنه بالعودة إليه ثانية للتحدث معه رغبةً منه فى استجابة الاقتراحات التى قدمها إليه بشأن البابا ، فالتمس الابن الإذن من البابا ومن المجلس كما فعل من قبل ، وقبل الشروط وأبحر مرة أخرى . ووفد على والده الإمبراطور الذى وافقه بمحض إرادته ، بل لقد أقرّ بما ارتكبه فى الماضى من سوء ، ورغب فى الخضوع للبابا وإعادة ما كان أخذه منه ، والتمس عفوه عنه ووضع نفسه بين يديه .

وعاد الإبن بهذا الاتفاق إلى البندقية حيث عم السرور من جراء جواب الإمبراطور الطيب ، وجهزوا أسطولا كبيراً رائع التسليح ركب فيه أكبر رجالات البلد وملؤوه بالعدد وجميع الضروريات اللازم حملها لسيد عظيم مثله ، وجاءوا إلى مدينة أنكونا حيث تلقاهم الإمبراطور لقاء كريما ، ودخل

السفينة بنفسه وشخص إلى البندقية حيث عومل معاملة رائعة جداً ، ومضوا به إلى كنيسة القديس مرقص ، ويقال إنهم وضعوه عند بابها منبطحا على الأرض حتى يمر البابا من فوقه ، ومن ثم كان ما أرادوا حيث خرج البابا من قصره ودخل الكنيسة بعد أن وطأ بقدميه الإمبراطور وهو يردد الآية القائلة . Super aspidem et basilisum ambulabis etc.

فأجابه الإمبراطور: «ما قيل ذلك لك، ولكن قيل للقديس بطرس».

فرد عليه البابا قائلا : « ما قيل للقديس بطرس فهو لى ، وما قيل لى فهو للقديس بطرس » .

ثم أنهضه ومنحه بركته ، وسأله الإمبراطور العفو والمغفرة ، واعترف بأنه أخطأ فسامحه البابا ، وفى الحال رد الإمبراطور إليه جميع الممتلكات الكنسية التى كان قد استولى عليها .

ظل الإمبراطور فى البندقية عشرة أيام وسط مظاهر الفرح الكبرى ، وقام الدوج بموافقة البابا والإمبراطور إلى أنكونا فى أسطوله وبصحبته جميع كبار لوردات الإقليم .

وفى أنكونا أقام الإمبراطور استعدادات ضخمة لاستقبالهم ، إذ كانت المدينة بثغورها إحدى ممتلكات الكنيسة الغنية ، وبقى الجميع بها عشرة أيام أخرى وهم فى احتفال غادر بعدها البابا والإمبراطور إلى رومة ، وعاد الدوج مع جماعته إلى البندقية .

ومما يروى أن البابا والإمبراطور طلبا إلى الدوج أن يسألهما ما يريد منهما لما أداه من عمل جليل ، وأخذا العهد على أن يجيباه إلى ما سأل ، فالتمس

الدوج منهما الحق فى أن يستعمل رنكهما فأجاباه إلى ما التمس ، ولا يزال الدوج إلى اليوم يستعمل الرنوك البابوية والإمبراطورية .

ثم استأذنهما الدوج بعدئذ فى الرواح، وانصرف إلى البندقية حيث صوّر القوم تاريخ هذا الخبر تصويراً عظيما فى قاعة كبرى هى أعظم وأغنى قاعة فى القصر المطل على البحر . وهذا هو السبب الذى من أجله يقيم البنادقة هذه الاحتفالات يوم الصعود لأنهم فى مثل هذا اليوم أحرزوا النصر ، ثم منحهم البابا الغفران الكامل للخطيئة والعقاب والذى لا ترحل السفن حتى تناله .

الفصل العشرون

صفة البندقية ، الجندول . كنيسة القديس مرقص . الحكومة . التجارة .
ثراء الشعب . الترتيبات الصحية . دقة العدالة . الترسانة .
البيارستان . أملاك البندقية .

. . . .

مدينة البندقية شديدة الازدحام بالسكان وتقع وسط إقليم كبير ، وبيوتها شديدة التلاصق بعضها ببعض ، ويقال إن عدد قاطنيها يبلغ سبعين ألف نسمة ، أما الأجانب والعمال — ومعظمهم من الرقيق — فكثيرون جدا .

وليس للمدينة أسوار ولا قلاع غير هذين الحصنين القريبين للميناء لأن الدفاع عنها إنما يكون بحرا ، فيمد القوم سلسلة من أحد الجانبين إلى الآخر ليكونوا آمنين على أنفسهم ، ولو حدث أن هاجم العالم كله المدينة لا كتفى البنادقة بإغراق سفينة واحدة بين الحصنين فى القناة وإذ ذاك يصبحون فى أمن وسلام .

والمدينة مبنية على البحر ، وتشقها قنوات مائية صناعية تستطيع القوارب السير فيها ، كما توجد فى بعض نواحيها شوارع يستطيع الناس المشى فيها سيرا على الأقدام ، وتوجد الجسور فى الجهات التى تكون القنوات بها أضيق من أن تخترقها القوارب ، وإذا كان لكل فرد من قشتالة دابة للركوب فإن لكل بندقى هنا قوارب وعبيدا مهمتهم التجديف والقيام على خدمته ، وإذا كنا نتفاخر بالجواد الجميل والوصيف الأنيق البزة فإن البنادقة يتباهون بقواربهم التى

يبالغون فى المحافظة عليها ، فيعلقونها تعليقا جيدا ويزودونها بالحشايا والأرائك حتى ليستطيع الفرد أو الإثنان أو أكثر من ذلك السفر بها .

والطرق التى توصل المدينة بالأرض الرئيسية صناعية ، ولا تستطيع الوصول إلى هناك سوى القوارب الصغيرة لعدم كفاية الماء اللازم للقوارب الكبرى ، كما أن القنوات ضحلة ورملية القاع ، ومن ثم لا تستطيع السفن الكبرى ولا الدواب دخول المدينة أو مغادرتها لإحاطة الماء بها من كل جانب ، ومن أجل هذا يقولون إن البندقية أجمل حصن فى العالم ، فتذهب القوارب إلى الداخل لجلب الضروريات ولإحضار مياه الشرب .

ويستعمل البنادقة سفنا كبيرة خاصة ويملؤونها بالرمل ويوجد فى قاعها فجوة ذات غطاء ، فإذا دخل القارب نهرا عذب المياه رفعوا الغطاء وملؤوا القارب إلى أقصى غايته ثم أحكموا سداده ، وتلك هى طريقتهم فى حملهم المياه اللازمة لهم ، وتوجد فى جميع بيوتات البندقية صهاريج لخزن المياه ، كما توجد صهاريج عامة من الطوب فوق البحر قد شيدت على صورة معينة يستحيل معها على الماء ـ كما شاهدت فى صهاريج بيت المقدس ـ أن يأسن أو تخبث رائحته كما يحدث فى بعض الأماكن الأخرى ، غير أن وصف جميع أساليبهم فى خزن المياه أمر يطول شرحه .

والمدينة غاصة بالكنائس والأديرة الغنية التى بالغ القوم فى الإسراف على تشييدها ، ومن أعظمها وأضخمها كنيسة القديس مرقص التى هى كبرى الكنائس بأجمعها وأعظمها كلها ، وهى ذات قباب على النمط الإغريقى ومغطاة من خارجها بالرصاص وذات سقوف مذهبة ، كما أن داخلها محلى بالفسيفساء وكذلك أرضها ، وإن كان ما بأرضها من الفسيفساء أكبر حجما وأكثر ألوانا ، ويوجد عند

باب المدينة الرئيسى قوس نصر عليه أربعة جياد ضخام من النحاس المطلى بالذهب الكثيف ، وقد نقلها البنادقة إلى هذا المكان تخليدا للنصر الذى أحرزوه يوم استيلائهم على القسطنطينية (١١٩) .

ويقوم قبالة هذا الباب ميدان فسيح أكبر من ميدان مدينة المعسكر ، رُصِفَت أرضه بالآجر ، وأحيط بدور متعددة الطوابق والأروقة ، وينعقد السوق هنا يوم الخميس من كل أسبوع وهو سوق أكبر من سوق Torro del Campo .

ويوجد على أحد جانبى هذا الميدان برج (١٢٠) شاهق الارتفاع يعادل برج أشبيلية طولا ، وعلى قمته صليب من الذهب الرقيق ، وهو من أجل ما تراه العين حتى إن العين لتطالعه فى ضوء الشمس من مسافة ثمانين ميلاً ، وفيه من الأجراس ما يدق أحدها للقداس ، وثانيها لصلاة الغروب ، وثالثها لدعوة المجلس ويسمونه بناقوس المجلس ، ورابعها عند تسليح الأسطول ، ولكل هذه النواقيس رنة تميزه عن سواه .

ويوجد على الجانب الآخر من هذا الميدان فى مواجهة البحر عمودان كبيران باسقى الارتفاع ، يعلو أحدهما تمثال القديس جورج مع التنين ، ويرقى الآخر تمثال القديس مرقص حامى المدينة وراعيها ، وقد جىء بهذين التمثالين من القسطنطينية أيضاً ، ويقولون إنه لا يوجد ثم أحد يستطيع ارتقاءهما ، غير أن قشتاليا تسلقهما وبلغ ذروتهما ، وإذ ذاك أمر البنادقة بأن ينال كل ما ينبغى فلم يطلب لنفسه شيئا ولكنه جاء إلى بعض سلالم على مقربة من العمودين ، والتمس ألا ينفذ القضاء فى أى مجرم مهما بلغ جرمه لو أنه لجأ إلى هذه السلالم مستجيرا ، غير أن المحتالين الآن يلعبون الميسر هناك ويقترفون غير ذلك من المنكرات وهم ألسنة تلهج بالثناء على الرجل الذى أتاح لهم هذا الضمان .

ويوجد بين هذين العمودين وبين كنيسة القديس مرقص قصر الضيافة الذى يقيم الدوج مع أسرته فى ناحية منه ، أما بقية القصر ففتوح لكل من أراد مشاهدته ، وكذلك القاعة الكبرى التى ذكرت آنفا كيف صورت بها قصة البابا والإمبراطور والتى يعقد بها المجلس اجتماعاته ، كما توجد قاعات أخرى رائعة التأثيث حيث يجلس القوم للفصل فى القضايا ولهم سجنهم ، وتوجد تحت الأقواس ـ تجاه الميدان الكبير ـ بعض أحجار معينة من الرخام منها ثلاثة ملونة لشنق النبلاء ، والبقية لشنق الأفراد العاديين .

ويترك الأجانب فى هذه الاروقة أسلحتهم ، كما توجد بها بعض جلود الحيوانات المسماه بالتماسيح (١٢٢) التى بعث بها سلطان مصر إلى السنيور باعتبارها أكثر الحيوانات مدعاة للفزع ، والواقع أن هذا القصر رائع جدا .

وللبنادقة قانون يحرم على من ليس بالنبيل أن يصير دوجا أو يتولى مركزا فى الحكومة ، وهو قانون يلتزمونه على الدوام ولا يحيدون عنه إلا لسبب خاص ، فإذا انتهى العشاء من كل يوم أحد دقوا ناقوس المجلس فى ذلك البرج الذى تحدثت عنه ، وحين ذاك يلتئم شمل كافة النبلاء ويتذاكرون جميع ما جرى خلال ذلك الأسبوع من مسائل حكومية وإدارية وقضائية ، غير مستثنين من ذلك سوى المسائل التى يتناولونها فى اجتماع المجلس السرى لاسيما شئون الحرب .

ويتألف هذا المجلس السرى من الدوج والمندوبين ، وتبدو الجمعية أشبه بالبلاط الملكى ، وتوجد عند أبواب القصر القوارب العدة ، ويقف الوصفاء فى حللهم الزاهية ، وإذا ذاك يخرج النبلاء من القصر ويذهبون إلى بيوتهم .

وتقضى أوامر الحكومة بأن يقصر شراء النبيذ أو الخبز أو القمح أو الزيت على الأجانب والفقراء فقط دون المواطنين ، حيث تباع لهم بأثمان يخيل معها أنها لا تدر ربحاً لأولئك الذين جلبوها من أطراف الدنيا، ولكن الحكومة تتولى الدفع بدلا منهم حتى تتوفر لهم ، وحتى لا يغدو الغريب أو الفقير فى حاجة إليها ، والواقع أنى لم أر فى بلد ما حكومة توفر لشعبها ضرورات الحياة وترخصها له كما تفعل هذه الحكومة ، ويبدو أن الفواكه التى يأتون بها من أسبانيا تستهلك فى البندقية طازجة ورخيصة كما لو كانت فى بلدنا ، وكذلك القول فيما يجلبونه من بلاد الشام ، وكذلك لو أراد المرء شيئاً من الهند لأن البنادقة يتصلون بحريا بجميع نواحى العالم ، وهم يستوردون مع تجارتهم أشياء أخرى لإعالة الأهلين .

والبنادقة فاحشو الثراء ويتاجرون فى أشياء كثيرة فيكون دخلهم كبيراً من الربح البسيط ، كما أنهم يبيعون ما يبيعون بثمن معقول .

* * *

والبيوت رائعة جداً ، شاهقة الارتفاع ، متعددة الطوابق والمداخن ، ومجهزة بدهاليز ونوافذ عدة مطلة على الشوارع ، وهى محلاة بالذهب والرخام واللون الأزرق ، ويفخر الناس القريبون بل والبعيدون بكونهم بنادقة مواطنين لكى ينعموا بعطفها كما هو الحال مع ملك قبرص ومركيز مانتوا ومركيز مونتفرات الذين لهم — كما لسائر كبار اللوردات والفرسان — قصور رائعة فى المدينة .

ولقد رأيت بها كردينال قبرص — أخا الملك — وكان نازلاً ببيت شقيقه وهو إذ ذاك على وشك الرحيل إلى قبرص ، وكان القارب المعدّ لنقله

مربوطا إلى باب منزله الذى قابلته به وجُبْت معه المدينة ، كما يوجد غيره كثير من القوارب — ما بين صغير وكبير — قد شدت إلى أبواب بيوت أصحابها .

وبالبندقية كثير من الأديرة الرائعة العظيمة التى تزيد على ثمانين ديرا للرجال والنساء وأكثر من خمسين كنيسة ؛ وتحفل بجانب كبير من الآثار المقدسة وأجساد المباركين كجثمان القديسة هيلينا والقديسة مادينا وساق القديس كريستوفر من الركبة إلى القدم ؛ هذا إلى جانب كثير من عظام الطاهرين وما لا يحصيه العدّ منها مما أحضره البنادقة معهم من القسطنطينية حين استيلائهم عليها .

وطائفة العامة غنية على غير المألوف فى هذه الطائفة ، وهذا أمر قد تبينته أثناء السكرنفال فى حفل تنكّرى أقيم بقصر الدوج ، فقد جاءت بالبحر سفينتان كان من المفروض أن تُقل إحداهما الإمبراطور الذى وفد مع ثلاثين فارسا فى أثوابهم الموشاة الزاهية ، وجاء فى السفينة الأخرى الأستاذ الأكبر لفرسان رودس الذى تدثر بالقطيفة السوداء ، وكانت السيدات اللائى استقبلنهم قد تسربلن بالحرير المطرّز ، وتحلّين بالجواهر الغالية ، والحق أننى رأيت بعضهن وقد لبسن ثلاثة أثواب مختلفة فى الحفل ولم يُعَدّ هذا الأمر منهن إسرافاً ، وكنّ جميعاً من أهل الطبقة الوسطى فى المدينة وأسْن من الطبقات العليا أو الغنية ، ومع ذلك فلم يكن فى الإمكان جعل الحفل أحسن مما هو عليه .

والمدينة نظيفة للسير بها نظافة الغرفة الرائعة ، هذا إلى أنها مرصوفة ومبلطة ، ولا تستطيع دابة على أربع أن تدخلها ، فإذا كان الشتاء لم ير للماء أثر فى شوارعها ومن ثم فلا يوجد الطين ، ولا يثور البغار إذا حلّ الصيف ، وتعلو مياه البحر هنا ثم تتساقط — وإن كانت أقل مما هى عليه فى الغرب —

هنا فتزيل القذارة من الأماكن المقدّسة وإلا كان من المستحيل العيش مع النتانة ، ويقولون إن الجو يكون موبوءا فى بعض الأحيان ولـكنهم يشعلون النيران صيفا وشتاء ويحرقون كثيرا من العطور ، ويحمل الناس معهم العطور والتوابل التى تطحن فى الشوارع وتذر فيعبق الجو بأبدع رائحة لذيذة .

* * *

ولم يكن مسموحا للحكام ـ حتى وقت قريب ـ بحيازة الأملاك فى البلد، غير أنه لما ازدادت قوة السادة بحرا وبرا واكتسبت ولايات كثيرة سمح لهم بالاستقرار فى الأرض الأصلية ، فإذا دعت الضرورة الناس للذهاب هناك للترويح عن أنفسهم كان لهم ذلك ، كما أنه إذا انتشر أحد الأوبئة استطاعوا أن يجدوا مكانا يفرون إليه .

ولا يغادر الدوج المدينة لأى سبب من الأسباب إلا إذا ذهب إلى دير القديس جورج وهو على مرمى حجر من البحر من قصره ، فإذا عمّ المدينة الوباء[١٢٣] انفلت إليه ، وقد حدث ذات مرة أن مضى أحد الدوجات إلى الدير فراراً من طاعون اجتاح المدينة ، وانطلق كل شخص إلى الداخل فلم يبق بها سوى الفقراء ، وحينذاك جاء إلى الدوج أحد أقاربه وقال له :

« سيدى اللورد ، إن لديك الآن فرصة لم تتح لشخص ما ، فعندك ثروة البندقية ، وقد غادر المدينة جميع كباراتها ولم يتخلف بها سوى الأغراب والفقراء ، فافعل ما بدالك واحتجن الثروة وضع التاج على رأسك، ولقّب نفسك بملك البندقية ، ويظل التاج على رأسك دائماً أبداً ».

فلامه الدوج على ما قال لوما شديداً وبقى الأمر سرا مكتوما ، غير أنه

بعد مدة وجيزة نال البعض الدوج بالسوء فى كلامهم ، فكرر قريبه النصيحة التى أزجاها إليه وقال « إنها تجديه نفعا ما دام لن يصير ملك البندقية »، فجىء بهذا القريب أمام المجلس ليعرف أعضاؤه صدق ما قال ، وضيقوا الخناق عليه فاعترف بكل ما حدث ، وإذ ذاك مضى السادة أعضاء المجلس إلى الدوج وسألوه عما إذا كان حقا ما قيل ، فأنبأهم بأن الأمر جرى كما قال صاحبه ، فتشاور الأعضاء فيما بينهم ، ثم بعثوا فى استقدام الدوج وشكروه على إخلاصه لوطنه ، ولكنهم التمسوا منه — وقد لاذ بالصمت فى مسألة كانت تنطوى على خطر كبير للدولة — أن ينتظر مثوبتهم ، ثم إنهم أنفذوا أمرهم بإجزال المنح الكبيرة على زوجته وأبنائه ، ولكنهم أمروا بقطع رقبته حتى لا يجرؤ أحد ما على كتمان أمر يمس السلامة العامة ، وإذ ذاك جمعوا فى القاعة الكبرى التى ذكرتها جميع أسلحة الدوجات منذ البداية حتى وقتهم هذا ومعها أسلحة الدوج الذى قتلوه وغطوها بالقطيفة السوداء .

ويفخر البنادقة بأنهم أوقعوا عقابا ظل عالقا بالأذهان ، فقد كان هناك مواطن يفاوض فى أمر معين ضد المدينة فأمروا بقتله وأحالوا داره مسلخاً ، وأقاموا له تمثالا معلقاً بالسلاسل .

وثم آخر قتلوه لجرم اقترفه وتركوا بيته بلا باب يغلق عليه ، وأصبح لزاماً على من يعيشون هناك بذل أقصى ما يمكنهم بذله لصالح البلد .

وفى أثناء وجودى بها تقولوا شيئاً ضد كابتن كونت « كارمينولا »[١٢٤] وزعموا إنه ضالع فى مؤامرة ضد المدينة ، فاستقدموه إليهم بعهد أمان، ثم ألقوا القبض عليه وانتزعوا لسانه عن آخره وتفننوا فى تعذيبه بوسائل أخرى حتى

مات فدفنوه فى كومة روث ، ونصبوا عليه حجراً نقشوا عليه هذه الكلمات :

« هنـــا يرقد الخائن كونت كارمينولا »

وقد حدثت هذه الأمور وأمثالها فى تلك المدينة

* * *

وبالبندقية دارا صناعة إحداهما للسفن هى أجمل واحدة فى الدنيـــا ، والأخرى للمدفعية وكل مايلزم الملاحة، ويصل البحر إليها ومن ثم تستطيع السفن الرسو هناك بعـد اجتيازها الحصنين ، وقد أنبأنى القوم أن لهم بالبحر وفى مخاذنهم من أغربة الحرب والمراكب التجارية ثمانين واحداً إلى جانب سواها من السفن ، وقد حدث ذات يوم أثناء عودتى بعد سماع القداس فى كنيسة القديس مرقص أن رأيت قرابة عشرين رجلا يدخلون الميدان، وقد حمل بعضهم المقاعد وآخرون الموائد وغيرهم الكراسى، وكان بعضهم يحمل حقائب كبيرة مملوءة بالنقود ، وإذ ذاك ضربت طبلة دون الجرس الأكبر الذى يسمونه « بجرس المجلس » ، ولم تمض ساعة حتى كان الميدان قـد اكتظ بالرجال الذين قدموا وأخذوا أجرهم وانصرفوا الى دار الصناعة .

فإذا عبر المرء الباب ألفى على جانبيه شارعين يفصل البحر بينهما ، وعلى هذين الجانبين نوافذ البيوت مطلة على دار الصناعة وقـد خرج غراب يقطره قارب ويناول الناسُ مَن فيه مِن النوافذ حبال السفن والطعام والأسلحة والألغام والمدافع، وهكذا يأخذون من كل جانب كل ما يحتاجونه ، فلما وصل الغراب نهاية الشارع كان على ظهره جميع الرجال الذين يحتاج إليهم مع المجاذيف وامتلأ الغراب عن آخره ، وعلى هذه الصورة جاءت عشرة أغربة تامة التسليح وذلك فيما بين الساعة الثالثة والتاسعة . ولا أعرف كيف أصف ما رأيت هناك هناك سواء فى طريقة التكوين أو فى الناحية الصيرفية، ولا أحسب أن فى العالم

شيئاً أروع من ذلك ، ولو أراد البنادقة إظهار قوتهم الحربية فإن أعداء الدين في هذه الناحية لن يستطيعوا ـ في نظري ـ أن تكون لهم سفينة واحدة في البحر أو على الشاطىء ، ولن يجرءوا على تحدّي مثل هذا الخصم العنيف .

كان في الأزمنة السالفة لبضعة أسابيع قلائل أو حتى بضعة أيام صيد لا يستخرج الصيادون فيه إلا الأطفال الموتى من شباكهم وهذا جاء ـ كما يقولون ـ من أن التجار كانوا يظلون منفصلين عن زوجاتهم زمناً طويلا ، فتدعوهن الرغبة الجسدية إلى الاتصال والحمل ، فإذا وضعن وأردن إنقاذ سمعتهن بادرْنَ بإلقاء أطفالهن من النوافذ إلى البحر لهذا يظل المكان مهجوراً ، ولذلك تشاور الحكام ـ نظراً لهذه الجرائم البشعة ـ فيما بينهم وأسسوا مستشفى (١٢٥) كبيراً غنياً بُني بناء جميلا وزوّدوه بمائة مرضعة للأطفال ؛ والآن فإن اللاتي يردن ستر فضيحتهن يأخذن أطفالهن هناك ليعنى بتربيتهن ، وكذلك حصل البنادقة من البابا على مرسوم ينص على أن كل من زار هؤلاء الأطفال نال شيئاً معيناً من الغفران ، ومن ثم فإن الرجال والنساء يذهبون لزيارة أطفالهم بحجة نيل المغفرة ، ولا شك في أن هذا عمل ينطوي على التقوى العظيمة ، ويُنظر اليه بالاحترام العظيم .

وفي هذه المدينة ينزلون العقاب الرادع بمن يحمل سلاحاً مهما كانت حجته ، وإن خف العقاب قليلا لمن يحمل السلاح في مجلس الحكم .

ويُوقّر الناس المسنّون توقيراً عظيما ويبذل القوم لهم الاحترام الكبير ، وحينما ينتخبون « الدوج » يتجرّدون عن الميل والهوى ، ويؤثرون أصلح الرجال لهذا المنصب على شرط أن يكون نبيل المولد ، فإذا انتخب لم يخلعوه قط من منصبه إلا لجريمة يقترفها ، ويجرون عليه راتباً قدره ثمانية ألف دوكات

يكون معاشا لأسرته ، أما بقية المصروفات فتتحملها عنه الحكومة ، ولايستطيع أن يجاوز ماقدّر له ، كما أنه لايستطيع أن يحكم على أحد أو يطلق سراح فرد ما دون موافقة أعضاء المجلس .

واشتهر البنادقة بشرف المعاملة ، ثبت لى ذلك بالتجربة ، وإذا فكر أحدهم فى شجب عهد أخذه على نفسه فى مسائل نقدية آثروا دفع دينه على ارتكاب مثل هذه الحماقة ، ولست أعجب من أناس يجولون حول العالم أن يراعوا هذه القاعدة وإلا لم يستطيعوا الرحلة آمنين ، ومن عادتهم أن يرسلوا كل سنة مواطنا من مواطنيهم الأشراف الكرام المولد إلى كل من المدن الداخلية والواقعة على الخليج ، ويرسلون مثله كل عامين إلى الأقطار الواقعة فيما وراء البحار والبلاد القاصية ، وحدث ذات مرة أن بعثوا بالبودستا إلى جزيرة إقريطش التى نسميها كانديا ، ثم أنفذوا بعد سنة محققا على مألوف عادتهم ، فأجرى تحقيقا دقيقا انتهى به قبل عودته من الجزيرة بقطع رأس البودستا ، ومن ثم فإن الولايات والمدينة مراقبة جيدا ، وما كان لامرئ فى أى بقعة من البقاع التابعة لهم — حتى ولو كانت فى أقصى أطراف الأرض — إلاّ وخيّل إليه أنه فى البندقية ذاتها .

وتتمتع المدينة بحكومة قوية جدا مما أدّى إلى شدّة رخائها حتى أصابت من الثروة ما يجاوز الحدّ ، ويجلب مواطنوها إليها ما جاءوا به من منتجات الشرق فى وفرة بالغة وكثرة عظيمة ، ويفعل فعلهم أهل الغرب حتى ليخيّل أن العالم بأجمعه فى يمين البنادقة .